المعلوم والمجهول

الجزء الثاني

ولى الدين يكن

سنة ١٣٢٩ — ١٩١١

الوزير الحر والفاضل الجليل رشيد عاكف باشا

والي سيواس ثم ناظر الداخلية سابقاً

واحد اعضاء مجلس الاعيان الآن

الفاضل الحر والهمام الأبي ارستيدي باشا

معاون الوالي بسيواس ثم مبعوث ازمير ثم ناظر الحراج والمعادن سابقاً

واحد اعضاء مجلس الاعيان اليوم

الصديق الأوفي والشهم الأبي المسيو م . جويت

قنصل الولايات المتحدة الاميركية بسيواس سابقاً

وقنصلها بطرابزون الآن

الشهم الأبي المسيو اوسمين لابورت

قنصل فرانسا بسيواس ثم قنصلها في بنكوك

الشهم الحر اسعد رؤوف بك

مكتوبجي ولاية سيواس ثم متصرف مرسين

جانب من منظر مدينة سيواس صحيفة (٧٧)

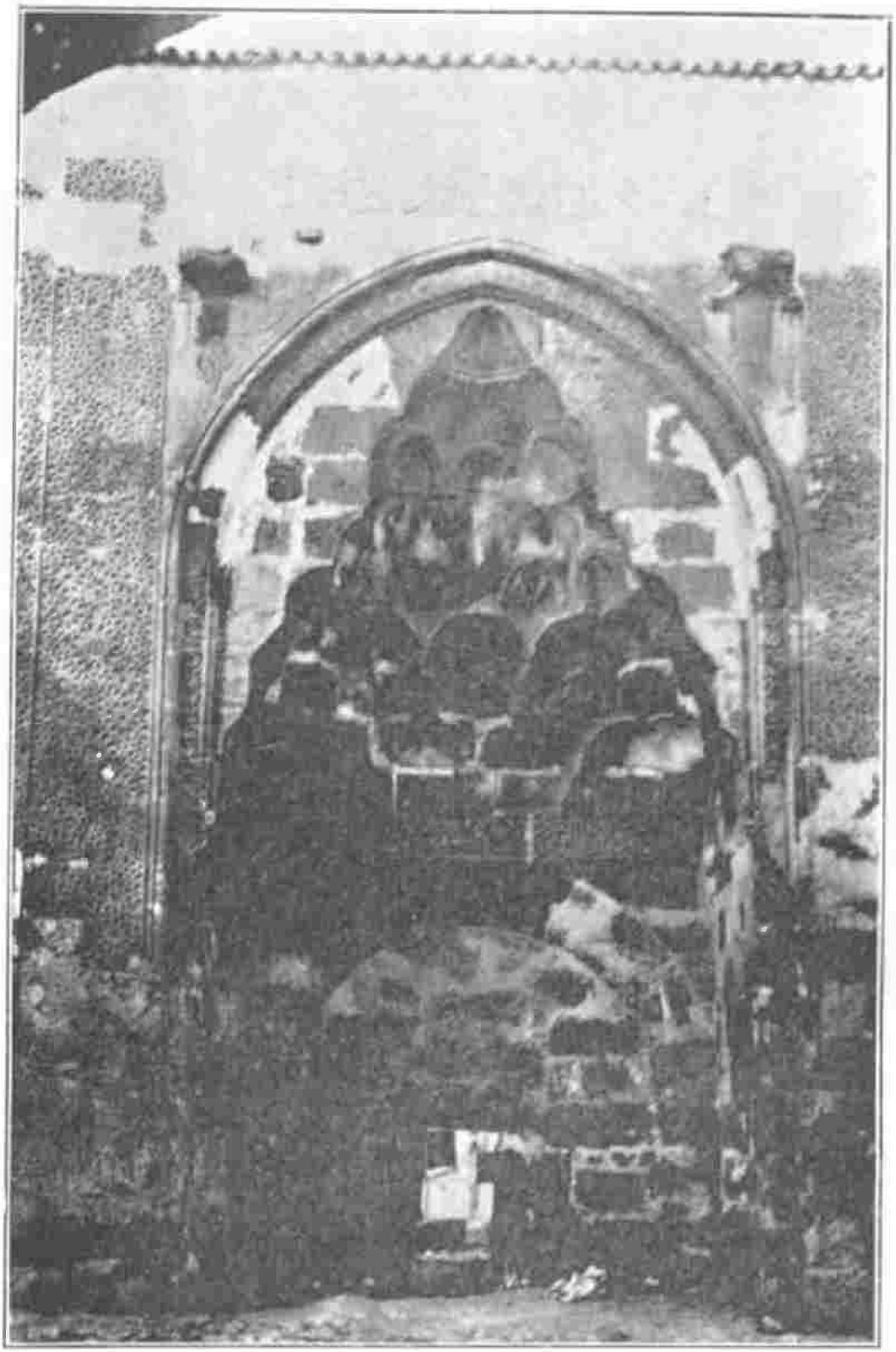

المدرسة المسماة شفائية صحيفة (١١٧)

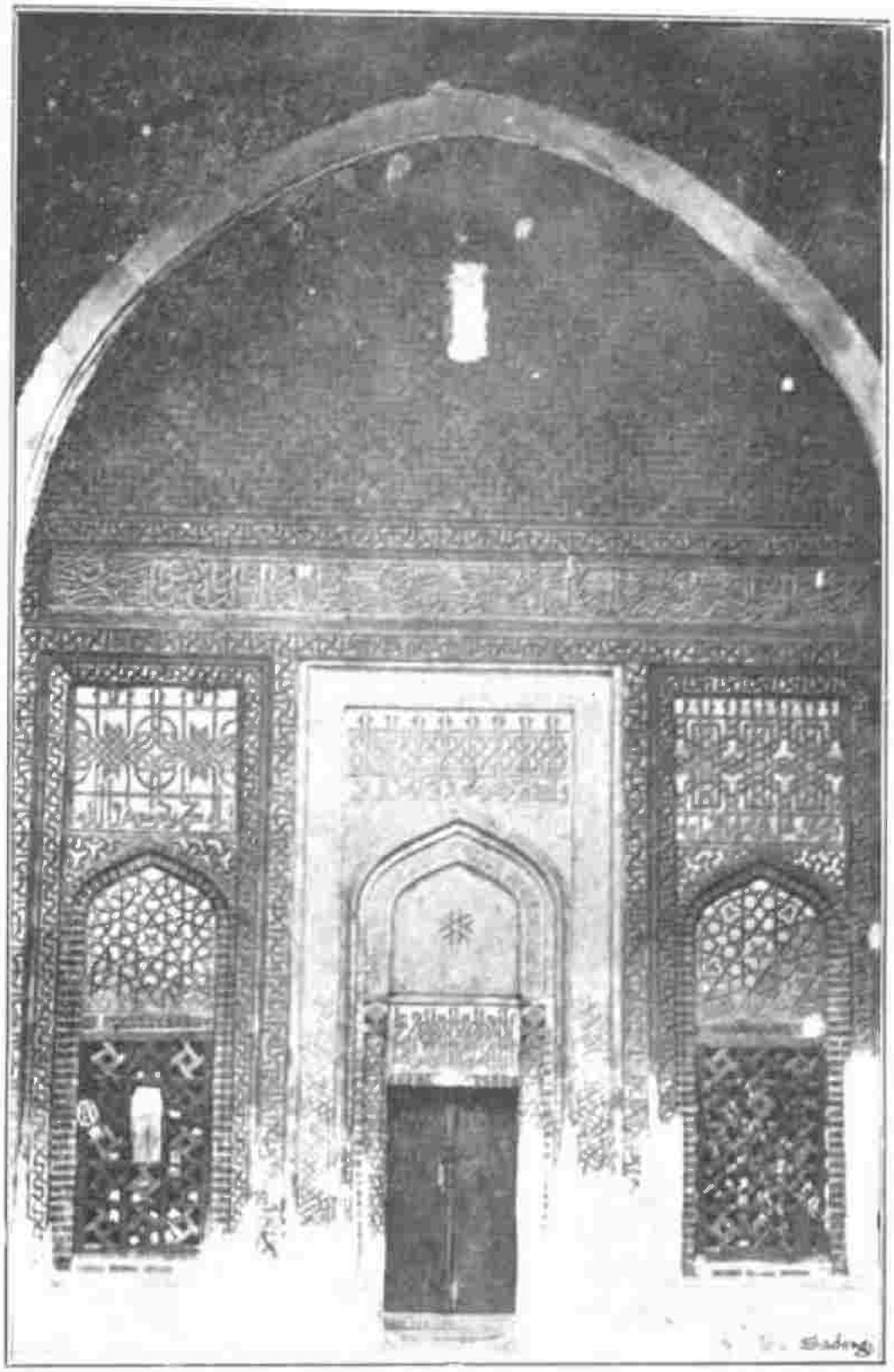

المدرسة الشفائية صحيفة (١١٧)

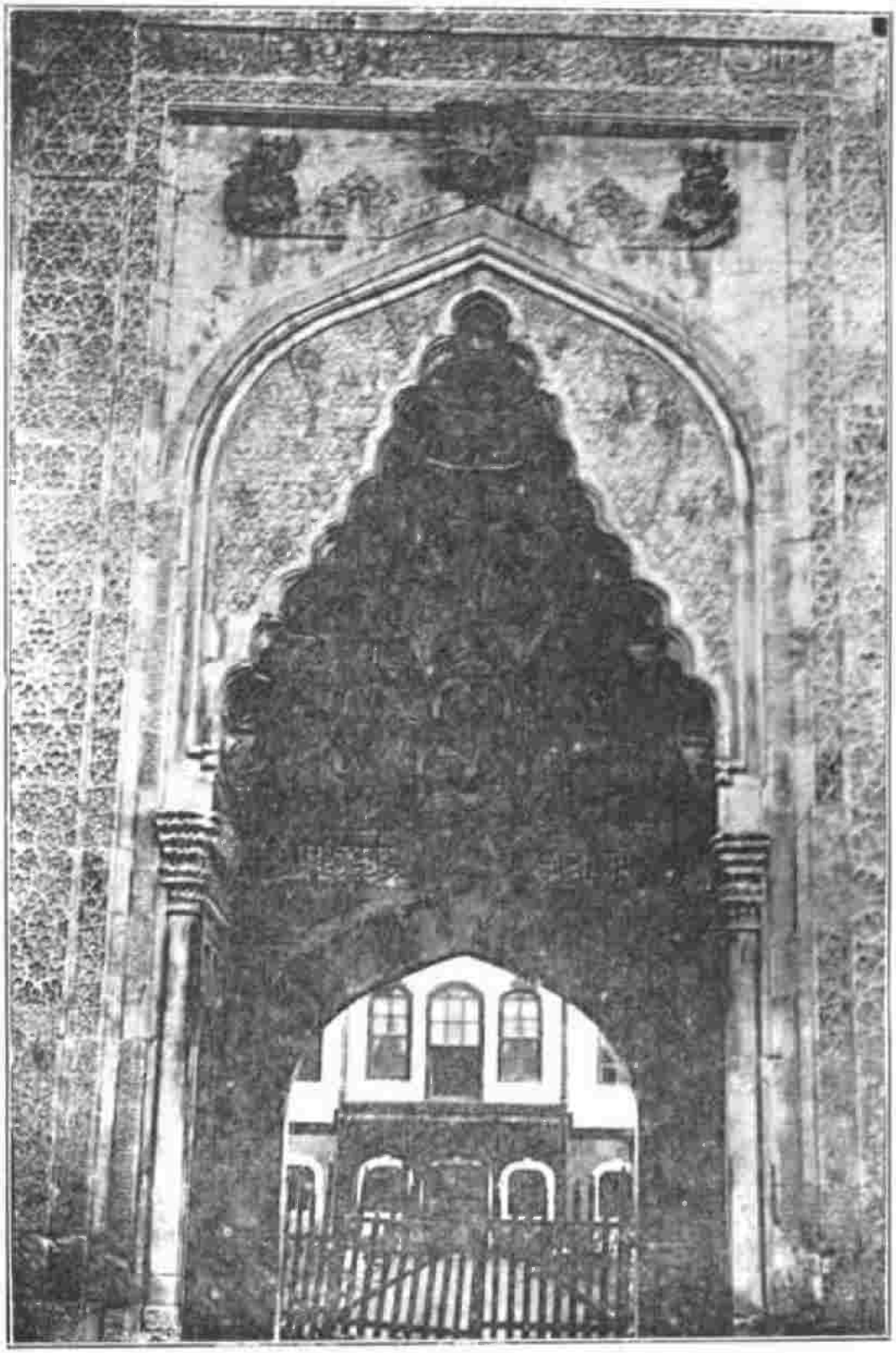

مدخل جامع چفته مناره صحيفة (١١٩)

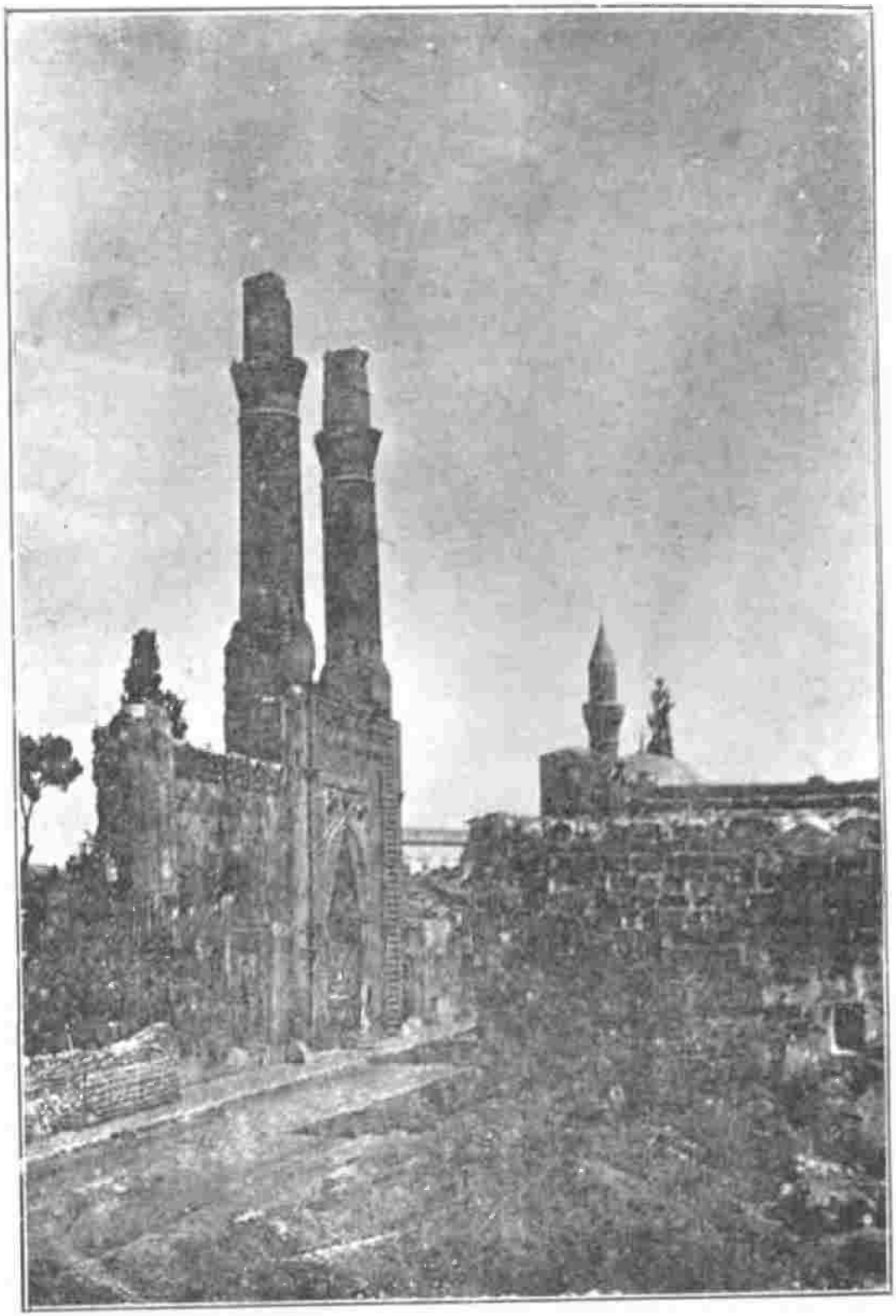

مدرسة چفته مناره صحيفة (١١٩)

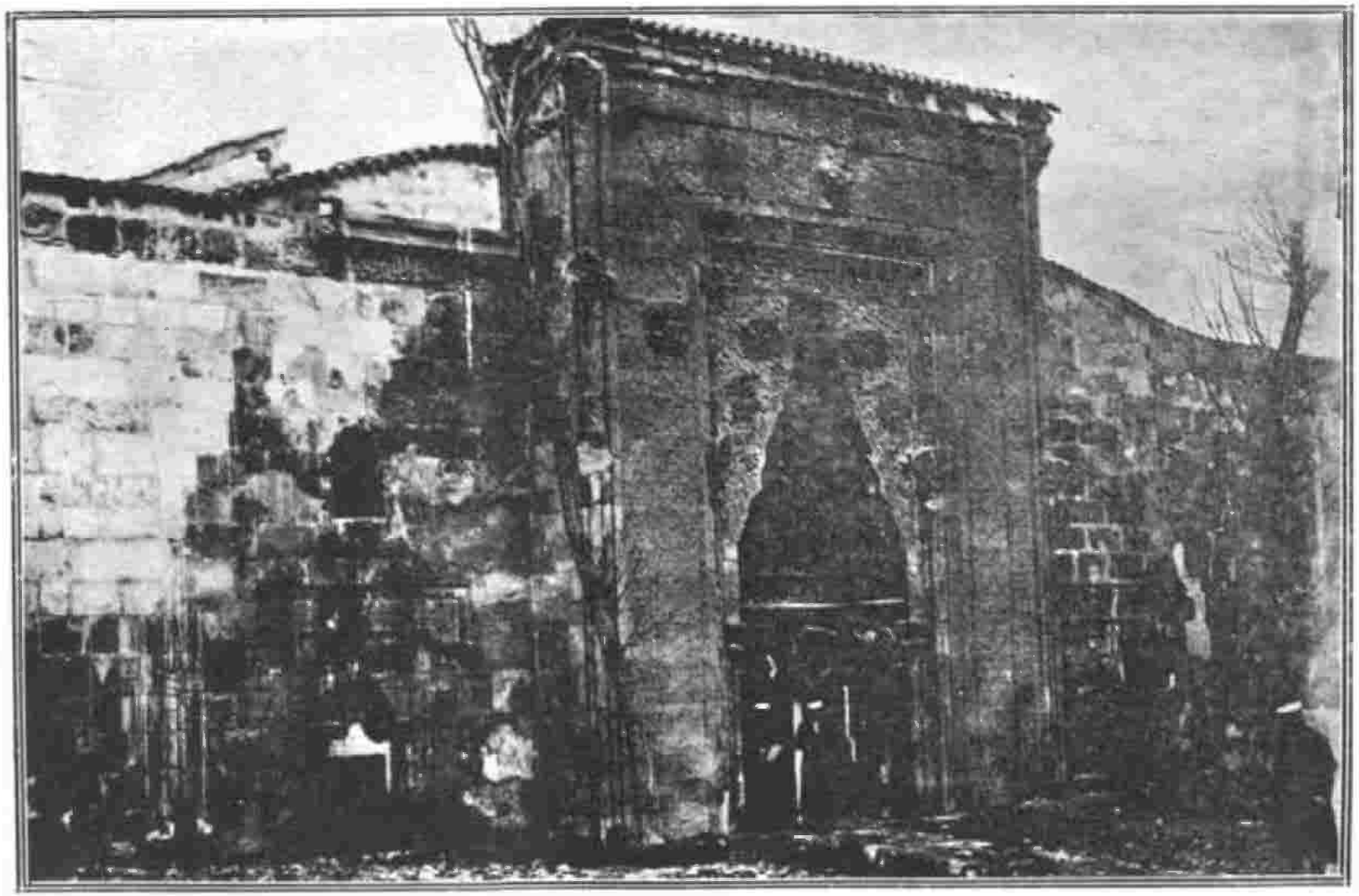

مدرسة البروجية او المقصودية صحيفة (١٢٠)

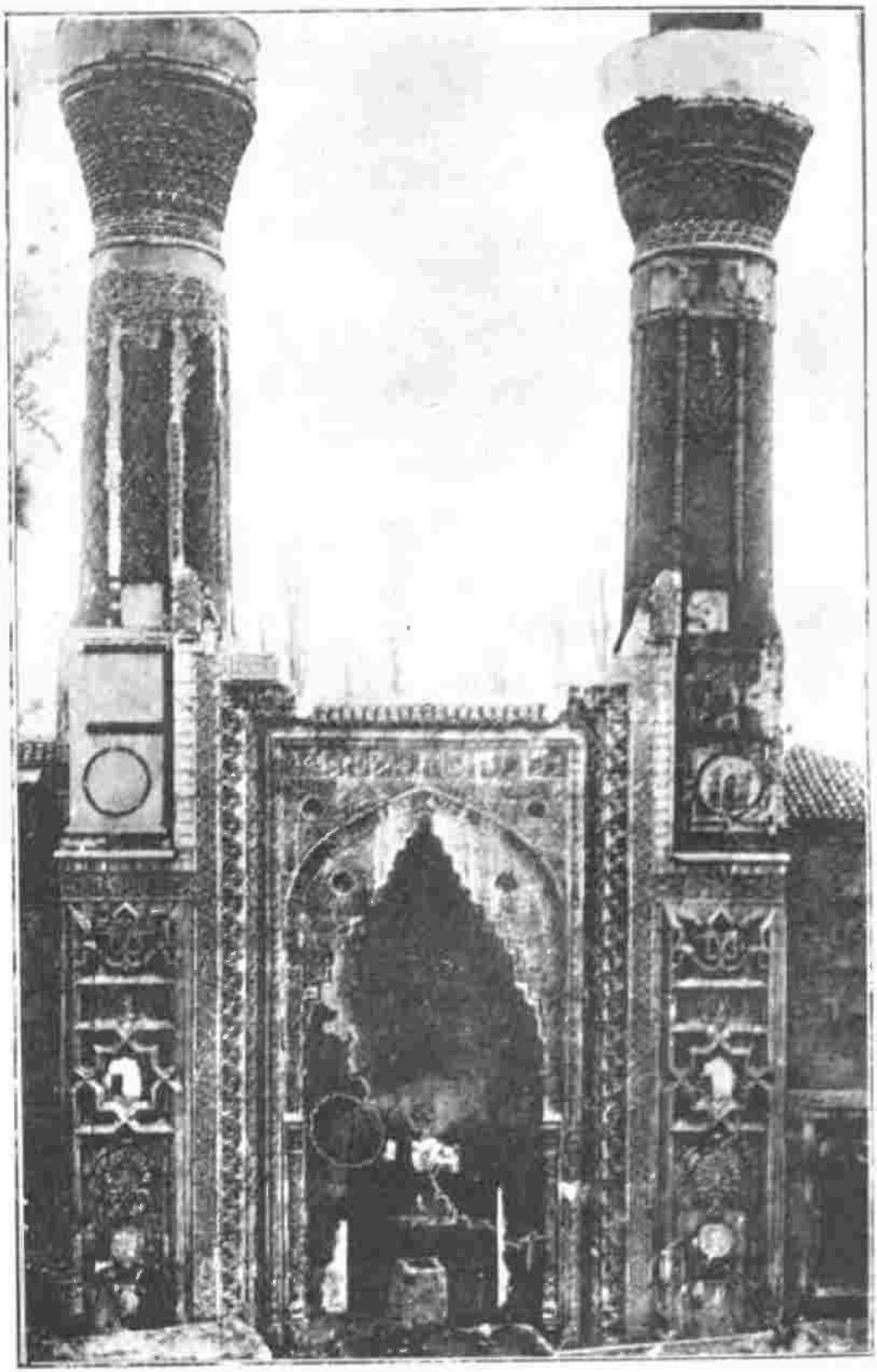

مدرسة (كوك مدرسة)　　صحيفة (١٢١)

قلعة سيواس العتيقة

المدرسة الملكية الاعدادية

القبة الكائنة بخارج سيواس

احدى حفلات السباق التي أسسها رشيد عاكف باشا بسيواس

رشيد باشا في وسط الصف الأول وعلى يمينه المستر جويت قنصل امريكا ثم عقيلته ثم شقيقتها

وعلى يساره المسيو لاپورت قنصل فرنسا ثم آليوز بك حمو السلطان السابق

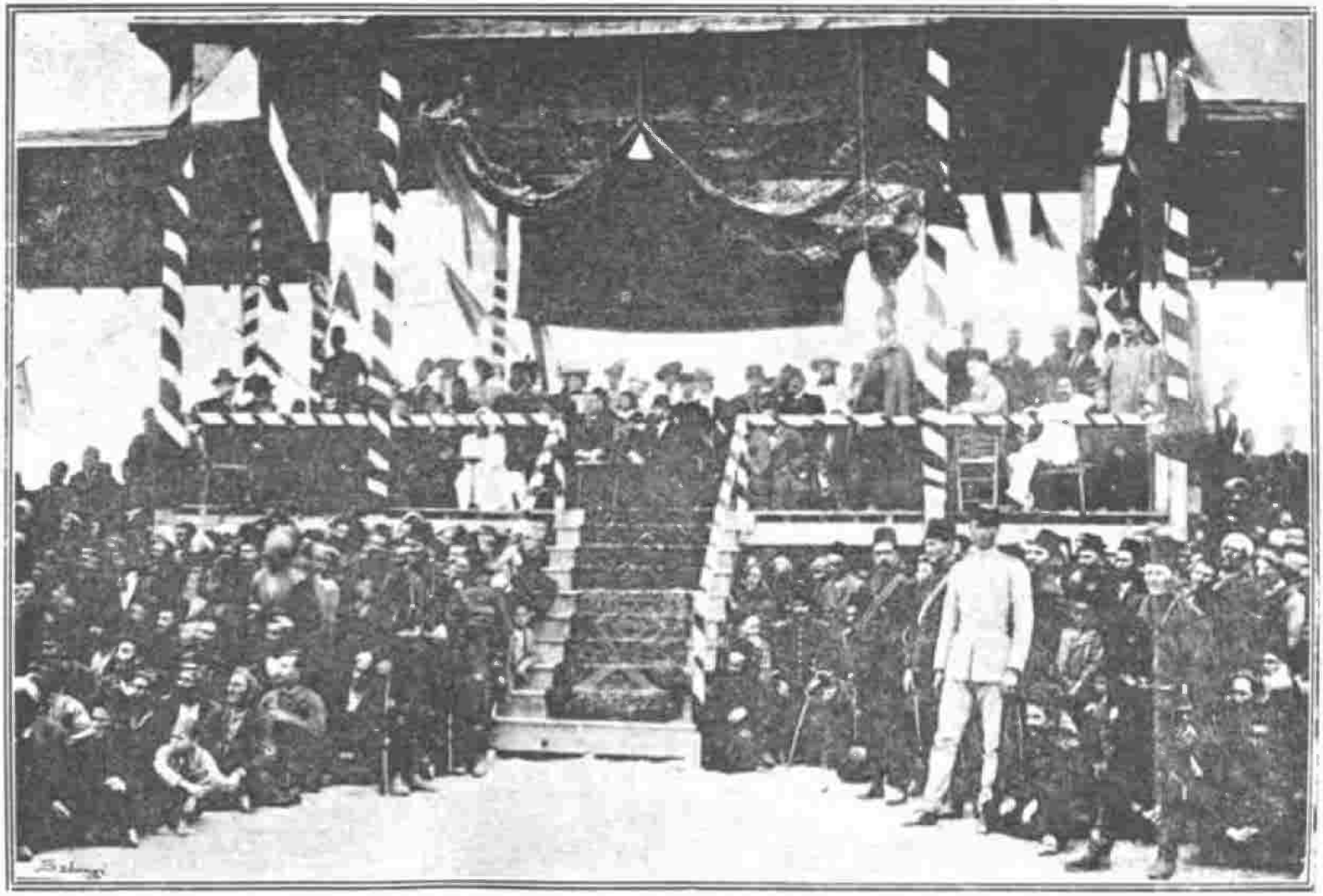

احدى حفلات السباق التي أسسها رشيد عاكف باشا بسيواس

المعلوم والمجهول

الجزء الثاني

ولي الدين يكن

سنة ١٣٢٩ — ١٩١١

مقدمة

قد علم من قرأ الجزء الأول من هذا الكتاب بعض ما كان يقع بعاصمة الملك العثماني في عهد حكومة الاستبداد البائدة . وما ذاك بالكل ولا بالجل . ان هو الاَّ مجمل ما عرفتهُ معرفة المشاهد وخبرته خبر المجرب . ولم أتعرض لما شاع على ألسن الرواة او ذكر في صحف الأخبار اذ لم آمن عليهِ غلبة الأهواء وكذب الرواية . ولكن أتهمني بعض الخلان بجعل الشكوك بمنزلة الحقائق في تسجيل التاريخ وبالميل مع الهوى في مقاضاة الرجال . وليس ذلك من الصواب في شيء . وكيف يكون صواباً وأنا الذي عانيت صعب مراس الأيام واستهنت فادحات الخطوب وأعرضت عن بسمات المعالي لكلمة حق أقولها . ولو تكتمتها لاقتصدت في عداوات الرجال

نظر الناس في الجزء الأول من المعلوم والمجهول فرأوا صورة اللورد كرومر وقد كتبت تحتها « مصلح مصر » . فألقوا بالكتاب جانباً وأطبقوا جفونهم وولوا عنهُ هاربين . راعهم شخص ذلك الرجل الجليل على الورق فأخذتهم سورته ولم تقوَ عيونهم على النظر في وجهه . فكيف بهم لو تمثلوا بين يديهِ ورن صوته في آذانهم . وقد زعموا بعد ذلك اني صنيعة الرجل والرجل لا علم له بكتابي الى يومنا هذا . وهال بعض الجرائد ما في الكتاب فأمسكت عن الكلام فيهِ . لم تشأ تقريظهُ ثقة منها بأن

ستشتمها الصحف التي تشتم اللورد كرومر ولم ترد نقده علماً منها بأن سأحجها اذا دعت الى النزال . وتراضينا في هذه القضية على السكوت

يا حرية . ظننت بأن سيكثر المتنافسون فيك فخفت ان ينفسوا عليّ . واذا هم يدعونك ولا يعرفونك . فان أخاف منذ اليوم رقيباً . أنا عرفتك وهمت بك هياماً . فأنا صاحبك من قبل ومن بعد . يريدون ان أكتب ما يريدون وأريد ان أكتب ما أريد . اتسعت مسافة الخلف بيني وبينهم . الشرق وطني وأنا في الشرق غريب . ولا ضير . ان أعرض عن مقالي أهل زماني فغداً يتهافت عليه أبناؤهم . « ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل »

على انني طويت أشياء كانت ذكرت في الفهرست الذي طبعته قبل الكتاب ورضيت ان تتأجج في فؤادي حسراتها وقلت : يا نفس ردي موارد الصبر . وما أنا بالجبان في قول الحق غير اني أشفقت على القلوب الحرة ان يذيبها حر أنفاسي . وقد أتت حالات عجزت عن تحويلها . وها أنا اليوم مقرّ بعجزي ومعترف بذنبي . واذا كانت لي في ذمة الدهر أيام رجوت ان أجد السبيل الى زيادة الافصاح وأن لا أموت نصف حرّ بل ان أموت حراً كاملا

واليوم آن لي ان أنجز الجزء الثاني من المعلوم والمجهول وسيأتي فيه ذكر أشياء كثيرة لم يسبقني أحد الى بيانها . فأرجو ممن سيطالعون هذا الكتاب من خصومي ان يحكموا فيه ضمائرهم دون أهوائهم وان لا يتعجلوه بمدح او ذم قبل إكمال مطالعته .

كيف نفوني الى سيواس

لو كنت آمل أن سأعيش الى يوم أكتب هذه السطور لحرصت على ما كنت كتبت في أيام شقائي . ولكن غلب عليَّ اليأس واشتدت الضجرة وقلت ربما وشى بي واش الى الحاكم الظالم فأوخذ الى السجن ويؤخذ ما أكون كتبته الى النار . فلا انا أستفيد ولا الوطن يستفيد

لي عند بعض الناس ثارات انا أهبها اليوم لهم غير مكره . عفا الله عما سلف . ولا آتي في سياق حديثي بذكر أشخاصهم ولا أعرض بشيء مما امتازت بهِ صفاتهم تجاوزاً وصفحاً . فليعذرني قارئ كتابي فليس المقام مقام انتقام بل هو مقام أعتبار واتعاظ

لما كاثرتني جموع المستبدين وهي في إقبال دولتها وقوة سلطانها واشتعال جذوتها وامتداد حكمها وتخاذل عني قوم كنت أعددتهم للعظائم رأيت في نفسي ضعفاً عن الاستمرار على الكفاح . أما النكوص على عقبي فلم أرضَ بعيبهِ وعاره وأما الانقياد فدونهُ الموت وأعذب منهُ أشد العذاب . فرأيت الراحة في الهدون حتى أجد عدة كافية ودرعاً واقية وسلاحاً ماضياً وأنصاراً أولي حزم ووفاء . فأقمت الليالي والأيام لا أغشى لصديق مجلساً ولا أفشي لأحد سلاماً ولزمت بيتي وانقطعت عن نظارة المعارف . فكان يزورني من الأصدقاء من لا يسوءني محضرهم ومن آمن عواقب الثقة بمودتهم . وظللت على ما ذكرت بعيداً عن معترك المتناظرين منقطعاً الى أحزاني مكباً على مطالعة الكتب وكتابة الفصول

ونظم الاشعار . فطاب لي الانفراد وآنست الى وحشة هذا السجن الذي اخترتهُ لنفسي ولزم الجواسيس باب داري فجعلوا يتزاحمون جيئةً وذهاباً وهم لا يظفرون بطائل

فخرجت ذات يوم في حاجة عرضت . فلما كنت في بعض الطريق التقيت بصديقي القديم الدكتور ن .... وهو انكليزي الأصل . كان جاء الاستانة في أيام الحرب التي هاجت بين دولتنا وبين روسيا في سنة ١٨٧٧ وكتب في الجندية العثمانية . ولما وضعت الحرب أوزارها خرج من الجندية وطابت له الاقامة بالاستانة فلم يفارقها الاَّ مرات قلائل . وقد تعلم اللغة التركية وعرف قراءتها وكان له في اللغة الفرنساوية باع طويل وله بها كتابات تدل على أخذه بنواصي البيان . فدنا مني هـذا الصديق ومال بي الى قهوة كانت قريبة منا فدعاني الى الجلوس فجلسنا . ثم جعل يصعد فيَّ نظره ويصوبهُ وقد عرتهُ دهشة مما رأى من تحولي فأنكر ما شاهد في وجهي من التغير وأخذ يسألني عما أدّى بي اليـهِ . فقلت : لزمت البيت وانقطعت عن النزهة والاستشفاء بمعتلة النسائم فاحدث فيَّ طول اللبث وفرط الانكباب على التفكير ما ترى

— وما الذي دعا بك الى هذا الاعتزال ؟

— ملالة مغالبة الغاشمين وكلَّ عن نضالهم ساعدي فهادنتهم حتى استعيد قوتي او أجد نصيراً على الحرب

فتأمل الرجل النطاسي وجهي ملياً وتنهد تنهداً سمعت له زجلاً في صدره ثم قال :

— ألم أقل لك يا ولي الدين انك خاطيء في إغضابك أبا الهدى وقد

ظننت بي الظنون يومئذٍ وزعمت اني متشيع له ؟ ومالي والتشيع لأبي الهدى وليس له عليَّ من سلطان . أنا رجل انكليزي وقصارى ما ينالني من غضب عبد الحميد ان يأمر باخراجي من بلاده فأخرج مكرهاً ثم أعود مدعواً فيستقبلونني بالعطايا . ولو كنت أُحاول ذلك لنلتهُ منذ أمد بعيد . وانما كان لومي خوفاً عليك من كيد رجل لم يثبت على لقائهِ منازل وعلماً مني بأن كل هؤلاء الذين في قصر الملك يخافون أبا الهدى على أنفسهم ولا يجاهر أحد من أعدائهِ بحماية عدو يكون أبو الهدى مطارده. ولم أقل لك في نصحي : شارك الرجل في مفاسده وأعنهُ على الخيانة وتحبب اليهِ بالكذب والنفاق . بل قلت لك دعهُ وشأنه واحترس من غوايتهِ واكفِ نفسك شر بطشهِ . والآن ماذا تريد ان تفعل ؟

— سبق السيف العذل . ما أنت باخل بنصح ولا الجد ذاهب بمأمل ولا أنا نادم على ما فات . إني فعلت حين قدرت وأمسكت حين عجزت واذا عاودتني المقدرة عاودت العمل

— انت أملك مني لنواصي الكلام وانا أبصر منك بمواضع الرأي فلا تغالب حقائق بزخارفك واسمع لما أُلقي عليك : تقوم من ساعتك ماضياً في حاجتك التي خرجت لها من دارك . وسأكون واسطة لأصلاح ذات بينك مع أَبي الهدى . ولكن إياك ان تنقاد لهواه وتستخدم قلمك في أَغراضه فتقضي بذلك لبانانه حتى اذا حاق بك سوء وقف يضحك على عقلك ويسخر من رأيك . وسأزورك في دارك بعد يومين

فمضى صاحبي لشأنه ومضيت لشأني وتم الصلح بيني وبين أَبي الهدى على يده وزرت أبا الهدى في بيتهِ وزارني بعد ذلك نجله حسن

خالد بك الصيادي . وبعد ان مضت على الصلح أيام توجهت الى منزل الصيادي لأنظر ما سيبدي لي من ود او عتاب وقد كنا تراضينا على ان لا نعيد ذكر ما فات وان لا يكلف أحدنا صاحبه عملا . فلما ادخل بي على الرجل تلقاني بصدر رحب وثغر باسم وأدنى منه مجلسي وأقبل علي بوجهه وطيب حديثه وانا لا يطمئن له فؤادي ولا تنبسط له نفسي. وكنت أعلم ان أبا الهدى لا يفلت فريسة امكنه الدهر منها وانه اشد ما يكون فاتكاً اذا ظفرت يداه بعدو له . فاضمرت الحذر وأظهرت الاستسلام فاذا هو يميل علي بكله وجرى يومئذ بيننا حديث طويل واطلعني على كثير من اسراره واقرأني من اوراقه ما لو عرض على عدو غيري لنال بها من الثراء ما يبقي لأعقاب اعقابه وحلف لي بالايمان المغلظة انه لا علم لابنه حسن خالد بشيء مما في تلك الاوراق . فأعدتها له وعاهدته ان لا يعلم مني احد شيئاً مما اسره الي وها انا اليوم أوفي بعهدي واحفظ له سره . ولو عاش في دولته الى يومنا هذا لحاربته حرب المستميت ولكن غير مغالب له بأسراره . وقد أيقنت بعدها ان الرجل جرى معي على غير شيمته وانه لا يضمر لي غدراً . فأمنت غوائله واسترحت من طول الحذر ولو كان أبو الهدى غير خائن لدولتي لحرصت على وده ولأقمت على مناصرته ما بقيت لي في الحياة بقية

على انني ما صالحت أبا الهدى اذ صالحته الا لأكفي طول مناضلته وأفرج عن وجهي ما كان يمنعني عن الفرار والخلاص مما كنت فيه . وأما وقد تهيأ لي ما أردت فلم يبق الا تشمري وشد رحالي . وبينا أنا في نقض وإبرام اذ دخل علينا شهر رمضان . فحمدت قدوم الصيام ورأيت

في شغله الشاغل للناس ما يعمي أبصارهم عما أتأهب له . واقت استنجز الفرص . واني لفي داري مشتغل بما ذكرت واذا رسول ابي الهدى يتعجل مضيي اليهِ . قلت ما أتى السيد حتى أنفذك اليَّ ؟ قال لا أدري ولكنهُ اخبرني انهُ سيكون على انتظارك بعد الافطار . قلت بلغهُ اني قادم عليه . ولما ولّى الرسول أنجزت ما كان بيدي من اعمالي وما أزف الوقت الا واكتريت عربة وبادرت الى موعدي . فتلقاني حسن خالد في طرقة الدار وسألتهُ عما دعيت لأجله فأبدى تجاهلاً حسن عنده سكوتي . ثم أُدخلت عند ابي الهدى . فاستقبلني قائماً ولم أرَ على وجهه بشاشتهُ التي عودنيها ولا بدت على ثغره بسماتها تلك التي خدعت الماكرين . ولكني رأيت في حاله من الوجل ما كاد يستخف بحلمي . فأمسك بيدي وجعل يتأمل وجهي وانا مستمسك بنفسي موطد قدمي ولا أدري ما نهاية ذلك كله . فأخذ يسكن روعه قليلاً قليلاً وثابت اليهِ أناته وراجعه وقاره فأشار اليَّ أن اجلس وجلس هو بمكانه . ثم قال :

— اني لفي قلق عليك منذ البارحة

— وكيف ذلك ؟

— سمعت ان الشرطة دخلت بيتك وأخذت كتبك وأوراقك وانك قضيت ليلتك في دار الضابطة . فبتّ لا أدري ما أصنع ولا كيف استخبر صحة الخبر . فما أصبحت الا وأنفذت رسولي اليك . ولما رجع واخبرني انهُ رآك بمنزلك خف عني بعض ما كان حل بي من الجزع . ثم خبرت ان القوم أخذوا ما وجدوا عندك من كتب وأوراق ولم يتعرضوا لك بسوء . فقص عليَّ الآن كيف كان ذلك ومن هذا الذي

وشى بك ولم يعلم ان وراءك أباً لا يكلك الى من يجهل عليك

— سيدي، لم يحدث شيء مما تذكره . اني لأحس بشر ولا أتبينه، وقد بثوا عليّ العيون واذكوا الارصاد وما أدري ما رابهم من أمري

— اذا لم يصح ما ذكر لي فذلك فضل من الله . ولكنني اوصيك بنفسك خيراً . افتح عينيك يا ولي الدين ولا تدع لأعدائك سبيلاً اليك . ومهما يكن عندك من كتاب او ورقة مما يحج بهِ الخصوم خصومهم فمزقهُ ولا تخف بعد ذلك واشياً ولا تبال رقيباً . واذا مسك الضر من مكيدة عدو فبادر اليّ لا متريثاً ولا متغافلاً . فهممت ان اخبره بما عزمت عليهِ من الهجرة ولكنني امسكت مخافة ان تكون الفتنة فتنته . ثم استأذنتهُ في الانصراف فأذن لي وودعتهُ وخرجت من عنده لا ألوي على شيء . فما ادركت منزلي إلاَّ عمدت الى كتبي واوراقي . فاخذت اتفقدها واستخرج منها ما لا يلائم هوى القوم . وكان عندي من كتب أحرارنا وجرائدهم شيء كثير . جاءني بعضهُ على يد بعض اصحابي من الاجانب واحضرت بعضهُ والدتي حين قدمت عليّ من مصر . فجعلت أُمزق هذه المذخورات الغوالي تفادياً بها من ليل لم أعلم انهُ لا محالة مدركي . وملت بعد ذلك على أوراقي . تفقدتها ورقة ورقة . وانا كلما اجد شيئاً يستراب منهُ أمزقهُ وألحقه بغيره . ولم أزل كذلك في نظر وتنقيب حتى آذن ليلي بالبلج . فاخذت تلك الممزقات وألقيت بها في النار . وما استقل بها اللهب إلاَّ وأنا كالآيب من احتطاب في الجبل أو كالخارج من غمرات الوغى . وكان لي بحجرة والدتي صندوق فيهِ أوراق وجرائد وصور نسيتها كلها ولم أتعهدها منذ قدومي الاستانة . وقد فاتني ان

بذلك الصندوق ما يستطير الشرر من عيني عبد الحميد . ولكم حاول أهل بيتي ان يحملوني على فتحه واحراق ما يكون فيهِ من أشباهه ونظائره فلم ألق للنصح بالاً

وفي يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر دسمبر الكائن في سنة ١٩٠١ جاء امرأتي المخاض . وما قاربت الشمس الغروب إلاَّ وقد وضعت بنتاً سميتها فكتوريا . تلقيناها ببسمات وتلقتنا بصيحات . وكأن المسكينة أحست بدنو النكبة من أبيها فأجهشت لرؤيته بالبكاء . فقلت إذ رأيتها في مهدها ما كان أسعدني بك يا بنيتي لو كنت في مأمن من طوارق الحدثان . وما بي ان أغرق في اليم أو ان اظل في ظلمات السجون . ولكن من لأمك وأخيك وجدتك من بعدي . وقد أظلكم عبد الحميد بسلطان نقمتهِ والناس يفرون من الحر وأهله كما يفرون من المجذوم

ومما زادني حزناً وأوسعني خبلاً قعود الحظ بي عن الفرار . وكيف كان يتهيأ لي ذلك وقد باتت عندي نفساء لا تقدر ان تخطو في حجرتها وطفلان كبيرهما لا يحبو وصغيرهما رضيع ووالدة ان أتركها اتركها للافاقة والامتهان . هذا وحول داري من الجواسيس طائفة لا تهجع الليل ولا تغدو النهار . قائمة على بابي تحصي أنفاسي وتراقب كل حالاتي

فلما كان اليوم الثاني من شهر يناير في سنة ١٩٠٢ جلست في حجرتي وجعلت أمامي ورقاً وأقلاماً وأنشأت اكتب فصلاً كان خطر ببالي . وقد أمسيت وأوقدت حولي المصابيح وأنا مستغرق في شغلي لا استشعر شيئاً من ذلك . فدخلت عليَّ الخادمة تخبرني ان بأسفل الدار زائرين يريدان ان يريا ني وان وراءهما جماعة من رجال البوليس وقوفاً على باب

الدار . قلت : لا ضير . أدخلي الضيفين الى مجلس الضيوف . أما البوليس فيكونون أتوا من الثكنة المجاورة للبيت ليدلا عليه الطارقين . هنالك خرجت الخادمة وأنا رفعت ما كان امامي من ورق وغيره . ثم دخلت على الضيفين . فاذا هما لا يسر مرآهما ولا يبشر قدومهما . رجلان من أعوان النقمة وجنود العذاب . أعرفهما من وجهيهما اللذين محا الله تعالى منهما آية الأنس وأجال في أديمهما صيباً غساقا وأسكن نفسيهما من السوء ما يكون معواناً لهما على أكل لحوم الناس وشرب دمائهم . أعوذ بالله من مثل تلك الوجوه . الضيفان الطارقان أحدهما محمد علي بك الذي كان رئيس الهيئة التحقيقية بنظارة الضابطة وثانيهما إسماعيل حقي افندي الذي كان مفتش البوليس في متصرفية (غلطه سراي) . تلقيتهما بما يتلق بهِ الزائر غير المعروف وناولتهما السيكارات وأسقيتهما القهوة وهما في محادثتهما لي يقلبان اوراقاً وجرائد كانت على خوان قائم في وسط القاعة . وقد أحس قلبي أن وراء هذه الزيارة ما لا أحب . فأبديت التغابي وآثرت الصمت حتى إذا فرغا مما يكرم بهِ الضيف التفت نحوي محمد علي بك وقال :

— شفيق باشا ناظر الضابطة يقرئك السلام ويقول لك ان السلطان أمره بتفتيش أوراقك وأخذ ما كان مخالفاً لرضائهِ منها . والباشا يعلم أنك لا تدخر شيئاً يغضب مولانا الأعظم . ولكن لا بد من الطاعة والجري على مشيئتهِ . وها نحن عندك نرجي إذنك في التفتيش

إسماعيل حقي افندي — أترى ولي الدين بك يشك في محبة الباشا له وإيثاره أياه على كل عزيز عنده . ما أظنهُ مانعنا عن خدمة يعلم أننا

مكرهان عليها . ولو خيّرنا فيها لما اختار أحدنا أن يحرمهُ راحتهُ ويكدر عليهِ صفاءه . قلت :

— لا بأس عليكما . لكما ما سألتما ولي اليكما رجاء فأعيناني على أكذوبة تنفعني ولا تضركما

— ما هي ؟

— سأقول لامرأتي أن ناظر الضابطة محب لي . وأنه اتصل بهِ أن سيفتش البوليس بيتي في هذه الأيام . فأرسلكما اليَّ لتأخذا له ما يكون عندي من الكتب والأوراق فيخفيها عنده ويعيدها اليَّ بعد انقضاء تلك المحنة

— لك ما سألت

هنالك دخلت على امرأتي وخاطبتها على ما توافقنا عليهِ . فلم تنفع الحيلة وفطنت لها ولكنها تجلدت تجلداً لا تقوى عليهِ السيدات وقعدت في فراشها وقالت أدخلهما . فدخل الرجلان وأمالا رأسيهما سلاماً . فلم ترد سلامهما . ثم أوغلا في التفتيش فما أشكل عليهما فهم كتاب أو جريدة أو ورقة إلاَّ أخذاها . ولما تدانيا من الصناديق التي بها ملابس سيدة البيت أعرضا عنها ولم يمد أحدهما اليها يداً . وقد وقع نظرهما على مسدس لي كان على خوان هناك فأخذاه أيضاً . ثم دخلا حجرة والدتي وطلبا أن ينظرا الصندوق الذي كان فيها . قلت هذا صندوق فيهِ ثياب والدتي . قالا كلا . ليس الصندوق صندوق ثياب ولا بد من أن نراه . فتركتهما وشأنهما وقد وجدا بهِ كل شئ ..... تلك أوراق وكتب وصور منها ما كتبهُ الأحرار ومنها ما كتبتهُ أنا . ووجدا صورة عبد الحميد الفطغرافية

في أوائل أيام ملكه وصورة السلطان مراد الخامس الذي قضى شهيد السجن بجراغان وغير ذلك مما يطول شرحه ويهول الخائنين ذكره

فلما وقع نظر الرجلين على هـذه الأوراق لمعت أعينهما وأفترت نواجذهما سروراً . وكان محمد علي أخبث الرجلين . فجعل يقلب الأوراق بين يديه ويهز رأسه كمن هاله أمر عظيم . فقلت في نفسي ماله يعطو كما يعطو حمار الوحش وما لهذه الرأس تدور بين كتفيه وكأن تحتها لولباً يديرها . فالتفت نحوي وقال :

— وجدنا عندك أكثر مما أملنا

فلم أجاوبه بكلمة . ثم استخرج صاحبه من الصندوق كيساً صغيراً كانت به أوراق بخط والدي المرحوم وصكوك وعقود وغيرها . فحاولت استرجاع الكيس غير أني لم أفلح . واذ فرغ كلاهما من جمع الورق جعلا ما أخذاه في كيس كبير وختما عليه بالشمع الأحمر وختمت كذلك معهما واحتملا حملهما وودعاني ذاهبين . ثم حين عاودت حجرة امرأتي وجدتها تنتفض إنتفاض العصفور في ليلة قرّ ممطرة حتى لم أشك ان ستقضي بين يديّ . فصحت بوالدتي لتعينني على مساعفة تلك المسكينة بشيء من الدواء واذا هي لاتقدر ان تنهض من مكانها . فادركتني الخادمة وأخذت تعالج معي المرأتين حتى هدأ روعهما وسكنت الرعدة في جسديهما ولكن بعد ان كادت الروح تزهق . ولما اطمأنن عليهما فوآدي خرجت الى بيت الجنرال احمد جلال الدين . فرأيت هناك مراداً الداغستاني ولم يكن يعرفني وجهاً . وعلمت ان الجنرال مريض وانه لم يقابل أحداً في يومه . فاخبرت وكيله بما كان من دخول الرجلين بيتي واخذهما اوراقي وأظهرت

له ما بت أتوقعهُ من الخطر . وكان الداغستاني يصغى لحديثنا وسمع الوكيل ينطق باسمي . فعرفني وتذكر ما كان بيني وبينهُ من شر فتركني حتى أتممت حديثي . فالتفت الى وكيل الجنرال واسمه رشيد بك وهو رجل عاقل . كامل التهذيب . فقال له مراد :

— أهذا ولي الدين بك يكن

— نعم هو من تراه

فنهض مراد واقفاً وجعل يحدق فيَّ ببصره حتى لظننت ان الرجل قد جن . ومشى خطوات الى ان صار أمامى . فكلمني قائلاً :

— ما كنت أحسبني أحيا الى زمن تشكو أنت فيه هذه الشكاية

— وما يريبك من شكايتي ؟

— يريبني منها انها شكاية رجل حر يصيح بها رجل مستبد

— ما رأيت من استبدادي ؟

— منازلتك لي أيام كنت اصدر جريدتي (ميزان) بوادي النيل ووقوفك في وجهي ودفاعك عمن تشكو ظلمه اليوم . هـذا الذي كنا نشكوه قبلك وكنت أنت تكذبنا فيه وتمطر علينا صواعقك . وجريدة النيل شاهدة عليك . واني لأعرف لك فضلاً حدثت به كل من لقيته ايام تلك المصاولات . وذلك انك مظفر الحجة شديد الوطأة عزيز مادة الكلام . ولقد قلت لهم انك للخصم يقذع خصمه ولكن يعنفه ويهذبه وكنت أوصي من معي بترك مغاضبتك والتعرض لقارعاتك

— اما ما ذكرت من منازلتي لك فما كان ذلك مكابرة في الحق ولكن كرهاً مني ان أراك زعيماً للاحرار . اني ذكرت في أول كلامي عنك اني

تاركك حتى أسبر غورك وأستبين نفسك من خلال كلامك . فسقطت سقطة بغضتك الى فؤادي وتخذتك بعدها عدواً لوطني وعرفتك لنفسي عدواً لدوداً . وان ترجع اليوم زعيماً على الأحرار أرجع عدواً لهم . لن تجمعني واياك وحدة حال ولو كانت في سبيل الوطن . واعلم اني أمرؤ لا أثق بعلمي ولكني اثق ببراعي ونفسي . وما دام لي نفس يتردد بين جوانحي فذلك عزمي الذي أُنازل به الصروف وأجاهد به في تأييد ما أعلم انهُ الحق. ولندع هذا الى لقاء آخر فاني منذ ليلتنا ممن هدرت دماؤهم . وكان كلامي لمراد آخر ما تحدثت به في بيت الجنرال أحمد جلال الدين . وأيقنت ان لا فائدة من بقائي هناك فودعت القوم وصرت الى ادارة التلغراف الكائنة في بيرا (بك أوغلي) . فكتبت رسالة برقية نسخت منها صوراً عدة خصصت كل صورة برجل من عظماء الرجال . منهم كوچك سعيد باشا وكان ولي الصدارة اذ ذاك . وممدوح ناظر الداخلية وعزت العابد وتحسين الباشكاتب . وكانت ادارة التلغراف تقبل كل رسالة إذا كان صاحبها معروفاً ولو كانت تلك الرسالة تسوء عبد الحميد . ولكنها امتنعت عن قبول رسالتي . زاعمة ان قد جاءها أمر بأن لاتقبل رسائل الا اذا كانت موجهة الى السلطان وأن يكتب عليها هكذا : (الى الأعتاب العليا) . فرضيت بما اشترطه مأمور التلغراف مكرهاً . وهاك فحوى رسالتي :

« دخل رجال الضابط الليلة بيتي وأخذوا أوراقي وكتبي وملأوا قلوب من بالبيت فزعاً . وإنما يصنع مثل هذا باللصوص وأهل الجنايات لا بمن اختارتهم الدولة لخدمتها ورفعت مراتبهم في حكومتها . وها انا

اليوم أتظلم لصاحب هذه البلاد واسأله انصافي وان يصدر امره بمحاكمتي لأنال براءتي مما وصمت بهِ او يلحقني جزائي »

ولما فرغت من الرسالة ودفعتها للمأمور رجعت الى البيت . فما اغتمض لي جفن ولا استقرّ لي جنب وقاسيت ليلة لا تكشف أهاويلها ولا تنجاب ظلماؤها الى ان نصل صبغها ورقت حواشيها . فتهادت إليّ سنة في طيات نسائم السحر تخطر على ايقاع الطير في وكناتها . فملت على وسادة الى جانبي وحيل بيني وبين الشهود . ثم ما لبثت ان نبهني بكاء بنيتي في مهدها . فلت تعلمي البكاء ايتها المسكينة . اني لأرى أمامكِ ايامًا تبكين فيها على ابيكِ اما شهيداً واما أسيرا . وما تكامل الصباح في ضيائهِ الاَّ اقبلت امي وامرأتي تبكيان الى جانبي . فنهيتهما عن البكاء وقلت اصبرا . لعل لنا في جوانب هذا المأزق منفرجاً . وأخذت امرأتي تنصح لي بالسفر قبل ان يتعاظم الأمر . وقالت نحن امرأتان ولا يلحق بنا من الحكومة أذى ولا نلبث ان نلحق بك اذا بلغت مأمنك . قلت : وكيف السبيل الى ذلك ؟ هذه دارنا أقامت على جوانبها الأرصاد وان بالباب لقوماً ألفت السهاد محاجرهم لا يفارقون مصراعيهِ قيد شبر وما مشيت في الطريق الاَّ رأيت ورأي قوماً يطلبونني بأوجههم الكاسفة وأعينهم الخائنة يلازمونني ملازمة الظل حتى لأتمنى ان تخسف بي الأرض فأتوارى عن أبصارهم . ثم هبي اني أحكمت الحيلة ودانت لي فجاج الأرض وصرت الى حيث لا يطول اليَّ باع الظالم المطارد فما الحيلة في سفركِ مع أمي وهذين الطفلين ؟ تظلون وليس عندكم من يعولكم ولا تدعكم الحكومة حتى تلحقوا بي وتمنع عنكم ما أبعث بهِ اليكم من المال

ولا ألبث ان أعود صاغراً فتكون العودة الثانية شراً من الأولى

— وماذا تريد ان تصنع ؟

— سأنظر في أمري . عسى ان أهتدي الى ما فيهِ خلاصنا

هذا وعد وعدت بهِ من عندي وانا غير واثق بإنجازه . ولما كان المساء مضيت الى أبي الهدى . فلما رآني صاح بي : ما وراءك ؟ قلت :

— ورائي ما يسوء كل صديق ويسر كل عدو

— وما ذلك ؟

فقصصت عليهِ القصة لم ادع منها حرفاً الاَّ ذكرتهُ . فأطرق يفكر وبدت على وجهه كآبة استكبرتها في نفسي . ثم رفع طرفهُ اليَّ وقال :

— وهل وجدوا عندك الكتاب ؟

يريد كتاباً كنت أخبرتهُ أني وضعتهُ وسميتهُ (العصر الجديد) . أتيت فيهِ على بعض الوقائع التي جرت بين مصر وفروق ولكني لم أتعرض فيهِ لعبد الحميد بسوء . وهذا كتاب كنت أنفذتهُ الى مصر ليطبع فيها . ولكنهُ تلاعبت بهِ الأيدي ولم يسمع له ذكر . قلت :

— يا سيدي جرت عادتي ان أكتب من غير تسويد . وذلك أني أنقل سانحاتي في ابانانها واقتصد من الزمان بقدر ما أستطيع

— اوه . لقد اخطأت الصواب . وددت لو عثر الرجلان عندك على تسويد هذا الكتاب فتفوز يومئذٍ فوزاً عظيماً . يا ليتني علمت ذلك من قبل . ثم صاح يا غلام . فدخل خادمهُ . فقال : عليَّ بحسن خالد الساعة . فما غاب الخادم الاَّ عاد ومعهُ ابن أبي الهدى . فأقبل حتى جلس الى جانبي وكان أبوه مطرقاً ويمينهُ تعبث بلحيتهِ . فانتبه على سعلة سعلها أبنهُ ليعلمهُ بمكانهِ وقال :

— جئت يا حسن ؟

— ممتثلاً أمرك يا مولاي

فاخذ أبو الهدى يقص على ابنهِ ما سمع مني . فما أتمهُ إلاَّ ابتدره ابنهُ مستعلماً :

— والكتاب ؟

— أخبرني البك انهم لم يجدوه واعتذر لي بانهُ لم يتعود تسويد ما يكتب

— قضي الأمر ولا حيلة في تلافي ما فات

واذا لم يكن من الجلد بد أقبل عليَّ الرجلان يعزيانني وقال أبو الهدى : لا تخف لن يبلغ الشر بنا غايته وان في الكنانة لسهاماً أعددتها الأيام المحجلة . فكن بمكانك من النجدة لا تذهب بذَماء قلبك هذه المظائم وسأبيت الليلة تدبيراً يتحداه الفوز وتسير على اثره الرغائب . فشكرت للرجل دعواه ونهضت راجعاً الى منزلي . فبلغتهُ وقد كاد يمزق صدار الليل عن ترائب الصباح . واذا الجواسيس يتهادون في الطريق . فجاوزتهم الى الباب حتى اذا بلغت أعالي السلم تلقتني والدتي لائمة معنفة وقالت :

— اي بني ما أبطأ بك الى الساعة ؟ ولقد تركتني وامرأتك على مثل جمر الغضا . فأجملت لها الرد وتمهدت لمرأتي فرأيت منها ما راعني . وجهاً تعالاه الوجل وجوانح تملك عليها الرعب وقد تمشى السقم في جسدها حتى لا ينقطع لها أنين . فجعلت أهون عليها الأمر واقول كانت أزمة ثم انفرجت وانها لغير معاودتنا من بعد . وما زلت بها حتى خف وقرها وهدأت لوعتها فنامت

ان في اليأس لسكوناً تجده نفس المكروب اذا بلغت الأمور أقاصيها . واني لأشهد بصدق ذلك وهذه تجربة ثانية ذقت فيها موتة العزم بعد ما كان بيني وبين أبي لحية . ومتى استشعر المجاهد ضياع المساعي وأيقن بخيبة الأمل ثابت اليهِ راحة السكون وهي آخر اعياء يجده المجهود. رأيتني في منزل نام أهله مغلوبين وليس حولي من أفضي اليهِ بحاجات نفسي . وكنت أريد صديقاً جلداً مستحكم رباط الجأش رحب الصدر مكين قرار الصبر أحدثهُ بما يحدثني بهِ فؤادي . ولكن من لي بذاك وقد تخاذل عني اخوان الصفاء وولوا كأنهم النعائم المجفلة وأضحى لا يزاورني إلاَّ الرجل الفاضل والصديق الأوفى مصطفى بك المخزومي والعالم المرحوم محمد صديق خان الحسيني وكلاهما من أعضاء مجلس المعارف اذ ذاك ثم كلاهما ينتمي الى بيت رفيع من بيوتات المجد . أولهما عربي وثانيهما هندي وحسبك دلالةً على طيب العنصر . وما فرغت من هواجسي إلاَّ وقد غشيني الكرى . فما انتبهت إلا قرب الظهر . وصرت أجدني واهي العزيمة خامد جذوة الشباب . فجعلت أتمثل ببيت كثير

فقلت لها يا عزّ كل مصيبة اذا وطنت يوماً لها النفس ذلت

وبعد هذا كله اعترضني معضل أشكل عليَّ استخراج غامضه واستنتاج الصواب من ثنيات شكوكه وذلك أمر أبي الهدى . قلت ان كان الرجل أسرّ عني بغضه وأضمر لي انتقامه فما حمله على افضائهِ اليَّ باسرار يضارب الرجال دونها بالسيوف ؟ وان كان مخلصاً لي في ودّه مستصفياً سريرته فما هذا اللعب الذي أراه . من اين جاء أبا الهدى ان ستدخل الشرطة داري وان ستأخذ أوراقي حتى أعلمني بذلك قبل وقوعهِ ؟

وما لبثت في استطلاع هذا السر طويل زمن بل فيض لي الله من أطلعني على مكنونه وأسرّ اليّ بنجواه وسيأتي بيانه في موضعه

ولا غنية عن ذكر ما كان بيني وبين القصر الحميدي . فعنهُ يتساءل القراء الكرام . واجماله ان الباشكاتب تحسيناً كان وجه اليّ بعض حاشيته يستدعيني الى (يلديز) . فتصدت اليهِ قبل مضي الى أبي الهدى . وكانت هذه أول زورة زورتها لهذا الخائن المائن بعد ان استعرت بيننا نيران العداوة . فما أخبر بمكاني إلاَّ أمر بادخالي عليهِ . فلما رآني تبسم لي تبسامة الخاتل ولم يمهلني ان أسأله عما ندبني اليهِ بل تعجلني بقوله : كرهت ان أطيل انتظارك . وقصارى ما لك عندي ان مولانا السلطان يأمر باحضار أوراقك من عند شفيق باشا ليكون فحصها واستطلاع ما فيها هنا بمرأى منك ومسمع . غير ان الأوراق لم تنفذ الينا والرأي ان تحضر غداً في هذه الساعة . قلت : لك ذلك وخرجت غير مسلم . ثم اقتضيتهُ في الغد فاعتذر وقال ان الأوراق تأخرت عنهُ . فخرجت وانا أقول : جعل الله عاليك سافلك أيها القصر وأوطأ الله أرجل الغالبين حجرك ومقاصيرك . وما اعتادني بعد ذا من هم جديد ولا ألم بي ملم يجدر بالذكر الى اليوم السادس من شهر يناير الكائن في سنة اثنتين وتسعمائة وألف وهو مستهل الكربة ومبدأ تاريخ الشقوة

السجن

ما ذكر أمرؤ عهده بنكبة حلت ساحتهِ وخطر شهد هوله إلاَّ تجددت فيهِ جزعاته وفزعاتهِ وعادتهُ آلام كان استشعر بها في ابانات نزول الخطب واشتداد الويل . الآن يخيل لي اني بسجن الاستبداد واني أعاني ما خلتني فرغت من معاناتهِ . ولولا اني قليل الاعتداد بما تأتي بهِ الأوهام وما ينجاب عنهُ دخان الشك لطال همي وساء عيشي . وما ذاك الذي اذكره رجفان في الروع ولا خور في النفس ولكنهُ أثر تستبقيه شدائد الأيام . لكل كارثة منهُ جانب ولكل فادحة منهُ سهم . على اني سأزجر فؤادي عن ذكر ما مضى وأنقطع من تلك العظائم ابقاء لرونق أمل أتلقى به هذا العيش الجديد الذي لبسنا لبوسه . فان تجر الأقدار طوع ما أردنا من الخير فذلك نعم العوض وان تحل حوائل الايام دون استتمام رغباتنا واستقرار أمانينا فان في لذة الادكار معواناً على التأسي . سبحان من جعلني راوياً بعد ان جعلني شاهداً وسبحان من أخلى تلك المعاقل بعد ان ظننا حقبة من الدهر ان لن يستفتح الزمان مغاليقها وان لن يذل جبابرتها

لكل ذي حياة يوم هو أشهر أيامه . وما في أيامي مثل اليوم السادس من شهر يناير ولا في أعوامي عام مثل العام الثاني من التسعمائة والألف . طلعت عليَّ طلائع الويل من يومهِ الثاني وما تلاه يوم إلاَّ استجد لي فيهِ شرّ . خلتني مجدوداً حتى اذا حياني سنحه تمنيت جذمه . فليذهب وقد ذهب لا أعاد الله مثل شؤمهِ

أهاب بي سجرة داع من الوجد فاسمع . قلت ما هذا الذي استفزني

من كراي وأنهضني من رقدتي . وتقدمت الى احدى الكوى وجعلت أنظر منها الى الحديقة . فاذا الوقت صحو والروض ندي والشجر موقف المتن لا تلويه نسائم والغصون مجردة من غلائل الأوراق لا تتأود ولا تتعذر واذا عصافير تتطاير من أماليد الى أماليد . برحت وكناتها وودعت فراخها فهي تحاوم لتلتقط حبات سقطت من يد الانسان في غفوة من حرصهِ . والماء كالماوية جلتها كف الصناع . تجعد صفحته كلما عبت فيهِ العصافير بمناقيرها ثم يخف تجعدها ثم يعاودها استواؤها . وعلى متون الغصون قطرات من الطل هي ولا شك بقايا دموع الطبيعة حين بكت بنيها . فهاج المشهد بلابلي وأثار أشجاني وكدت أصيح طرباً . وقلت ندع مثل هذا ونأوى الى الاجداث : : : ولكنني أشفقت على نفسي ان يطغيها حر خافيها . فالتفت ورائي واذا بنيتي وأخوها نائمان يرتفع صدراهما ويخطان . فصبحت كلا بلثمة على جبينهِ وثب لها فؤادي وبدرت من عيني بوادر شؤنهما . فقلت دموع بدموع أيتها الطبيعة والبادئ أظلم . ثم أقمت أترقب ان يتقادم العهد بالنهار علّي أجد سبيلاً كانت اشتبهت مسالكها او أحدث رأياً أدرع بهِ في لقاء الخطر المنتظر . غير أنني لم أبرح البيت يومي ذلك حتى المساء . فلما أصبت عشائي خرجت أنشد الطبيبة لتصف لامرأتي دواء وكانت اشتدت عليها أوجاعها

فركبت الترامواي متوجهاً الى بيرا (بك اوغلي) . ولما هممت بالنزول تبعني رجل لم ألقَ له بالا . وفي بيرا مطعم يقال له مطعم طوقاتليان . يعرفهُ كل من زار فروق في عمره مرة . فما بلغت مكانهُ الاّ اعترضني رجل من الشرطة قائلاً : الى أين تريد ؟

قلت : — وما يعنيك أنت من ذلك ؟

— اني أسألك لأني من رجال الشرطة وعليك ان تجيبني

— انا ذاهب لادعو الطبيبة الى عند امرأتي . انها نفساء وقد اصابها نزيف من الدم لا يمكن لنا ان نتغلب عليهِ

— ما أظنك صادقاً . ولا بد من مضيك معي الى متصرف بيرا

— لماذا ؟

— كذا أردت وكذا ينبغي ان يكون

— وان انا أبيت المضي معك وقلت لك : ما انا بالقاتل ولا بالسارق ولا بالمعربد وليس لي عند المتصرف شغل يدعوني اليهِ . فما أراك تفعل ؟

— آخذ بطوقك وأجرك على وجهك حتى انتهي بك الى المتصرف

— أنت لا تعرف من تخاطب ولا تعقل ما تخاطب بهِ الناس . خذ هذه البطاقة واطلبني في داري او في مكان خدمتي

— لا حاجة بي الى بطاقتك . وما اعترضتك جهلاً بك . ولا بد من المضي معي . وما أتم الرجل كلامهُ الاَّ رمى بنفسهُ عليَّ وحاول ان يأخذني من خناقي . فأهويت على يده بعصا كانت معي فشلت وعاجلتهُ بضربات كندف القطن وأخذت منهُ سيفهُ فألقيتهُ على الأرض ثم جعلت أدفع الرجل بقدميّ واستطرده أمامي صائحاً بهِ : سر . الآن انا أذهب بك الى متصرفك . فلما انتهينا الى باب المتصرفية أخذ جماعة من الاوروبيين يتصايحون :

— ما هذا ؟ ما هذا ؟ . أكذا يتصيدون الناس في الطرقات ليذهبوا بهم الى بحر مرمرة !

— ماذا فعل هذا المسكين ؟

— لعله سكران . لقد ضرب البوليس ضرباً مبرحاً

وقد بلغت الشهامة من بعض الاوروبيين مبلغها . فدنا مني وأمسك بذراعي وهو يقول :

— لا تذهب . وليأخذوك قسراً ان كانوا رجالا

فكثر اللغط بين الوقوف وعلت الجلبة وتكاثف الزحام . فأحاط بي جماعة من الجاندرمة وحيل بيني وبين الناس . فتقدمت الى باب المتصرفية آخذاً بطوق الشرطي الذي اعترضني . واذا جماعة من اخوانه يتقدمهم قوميسير اسمهُ شاكر افندي هو من اهل (بوسنه سراي) . فلما بصر بي دنا مني ومد يده الى حزامي ليرى مسدسي فيأخذه ويخفيه . وكنت اعزل لا سلاح معي . وقد جفت يمناي ويسراي على اذني الشرطي . واني لأجذبهُ اليَّ ثم ادفعهُ ضارباً برأسه الحائط . فأمسك شاكر افندي بذراعيَّ وجعل يعالجني حتى خلص مني الرجل . وأقبل عليَّ بعد ذلك ملاطفاً ليسكن ما هاج بي من غضب . وقد جاء أناس من الشرطة فكان منهم من يعنفني وكان منهم من يلاطفني . اما المعنف فآب مزوداً بما قسم له واما الملاطف فكان جوابهُ الإعراض . وأقبل قوميسير المركز يقول لي : أرى ان تصعد الى مكان المتصرف وتخاطبهُ فيما أغضبك . فهو أولى بجوابك وأدرى بمواقع الصواب والخطاء مما أتيت في ليلتك هذه . اما نحن فعبيد الأمر نفعل ما نؤمر به . قلت : واين مكان المتصرف ؟ قال : انا أدلك عليهِ واسعى بك اليهِ . ولكنهُ لم يرجع من القصر . قلت : سر . فسار وسرت على أثره . وما مضت على انتظاري

ساعة الاَّ وقد أدخل بي على المتصرف

أعوذ بالله ! ! ! وجه كاللبنة وعينان كالبصقتين ولحية كالطحلب وانف كالسواك . كل هذا يحمله عنق كحصر الهيفاء وجسد كزجاجة ملؤها صبغة اليود . لو صدق ما يقال عن العفريت وتنقب ذلك العفريت بحائط احد الاطلال . لكان دون الرجل قبحاً

تجاوزت باب الغرفة . فتلقاني المتصرف قائماً . باسم الثغر بادي الانس كأنهُ صديق لي مقيم على ودي منذ الاعوام . وحين دانيتهُ تبادلنا سلامين كمن يحثو التراب على رأسهِ فاشار الى كرسي امام مكتبتهِ وامرني بالجلوس عليهِ . ثم ناولني سيكارة وطلب لي قهوة . حتى اذا فرغنا من استنفاد عبارات النفاق قال لي :

— ما يغضب سيدي !

— ما ثم ما يغضبني . اعترضني رجل من الشرطة زاعماً انك انفذتهُ في طلبي . فحاولت مجادلتهُ بالحسنى فلم افلح . وكان ساعداي افصح مني كلاماً وابلغ حجةً .

— أترى انك اصبت فيما صنعت

— كلا . اني وقعت فيما نهيت عنهُ الناس ولمت على مثله اترابي . غير اني اكرهت على ما كان مني اكراهاً . استفزني ما يستفز غيري . وكما قيل في المثل : سبق السيف العذل . وقد كان في سابق خدمتي واخلاصي لهذا الوطن شفيع لي اذا اشتدت بي الكرب . غير ان الامة لا تعرف من يحبونها ولو عرفتهم لالتفت حولهم ووقفت في وجوه ظالميهم

— كلما اتونا بمعتدٍ اخذ يجادلنا باسم الامة . كأن هذه الامة تختار

لنفسها انصاراً لينادوا باسمها

— ما انا ممن اختارتهم الامة لنجدتها ولكني متطوع في هذه السبيل ولا انا من انصار الامة ولكني احد ابنائها وجزء من اجزائها

— ألا ترهب بطش امير المؤمنين ؟

ما نطق المتصرف بهذا الكلام الاَّ واثار كل ساكن في جوانحي . فقلت :

— أهذا مبلغ عرفانك . انك لأحمق . خوّف بامير المؤمنين احدى الدول او ملكاً من ملوكها . اما انا فلا جند لي ولا انا بصاحب تاج . ان انا الاَّ واحد من رعيتهِ . ومتى جاز للناس ان يخوفوا الناس بملوكهم . قد كنت ارجو ان تخاطبني بغير هذا الكلام ولكنك قليل النصيب من الادراك . تباً لك ولأمير المؤمنين الذي اختارك لتجلس على هذا الكرسي . لو أجلس عليهِ قرعة لكانت أحمد منك لقاءً واحسن منظراً

فنزل هذا الجواب على قلب المتصرف كالمهل . فضرب بيده مكتبته وصاح بي : ان جاوزت في قلة الادب حد المغفرة . فما اتم كلامهُ الاَّ وقد اكفأتهُ على مكتبتهِ واهويت بين كتفيهِ بلكمات . (ضرب الوليدة بالمسحاة في الثأد) . فبدت من الباب وجوه الشرطة ورأيت اني لا محالة واقع في ايديهم . فصحت بهم : اذا تقدم احدكم نحوي خطوة تركت لكم هذا الرجل لا حراك بهِ والقيت بنفسي من الكوة على الطريق . ويبقى لكم مني جثة لا روح فيها . فجاء معاون المتصرف وهو اقرب الناس شبهاً (الى ابي زعيزع) الذي يصنعه الصغار في مصر من الجزر ويصيحون بهِ في لعبهم (يا بو زعيزع قم صلي انت صغير ومحني) . فاخذ

المعاون يلاطف المتصرف بكلام لا اعرفهُ . والتفت نحوي فقال :

— لا يليق بمثلك ان يغلبهُ الحنق . ان البك بمنزلة والدك . فقلت

— حاشا . ان والدي عاش حراً ومات حراً . وهذا الذي امامك لا يكون والد احد . واقسم لك ان ابناءه او بناته ليبرأون منهُ الى الله

فجلس المتصرف واخذت شفتاه تتحركان بكلام لم اسمعهُ . ثم رفع رأسهُ اليَّ وقال :

— سامحك الله

— بل أثابني الله

ثم دعا احد الكتاب وأسر في اذنهِ كلاماً لم أسمعهُ . فغاب الكاتب وعاد وفي يده ورقة اخذها المتصرف ووقع تحتها بخاتمهِ وقال ارسل هذا في مثل لمح بالبصر . فلما ولّى الرجل نهضت واقفاً واردت الخروج . فقال لي المتصرف :

— الى أين تريد ؟

— الى بيتي

— لا سبيل الى ذلك الآن

— وما يمنعني عن الذهاب ولست مسجوناً ولا محكوماً عليَّ بحكم ؟

— اذا حاولت الخروج قسراً منعتك الجنود . ولا بد لك من الانتظار

— وماذا تريد ان أنتظر

— ارادة مولانا السلطان الاعظم

فايقنت بعد ذا اني وقعت في الشراك . فجلست . وطاف علينا الخدم بالقهوة والسيكارات . واستولى علينا الصمت . مجلس تعالاه السكون

وأظلمهُ دهشة الظلم ووحشة الويل . كالقبر لولا مصابيح تسطع منها الأنوار وأنفاس تتردد بين الجوانح والصدور . ما يعلق الطرف بشيء الاّ ورأى فيهِ صورة الخطب . فلما دقت الساعة دقتها التاسعة بالحساب الشرقي بدا في الباب شخص مشى نحوه المتصرف . ثم غاب كلاهما وبقيت أنا وحدي في تلك الغرفة . فما راعني الاّ قوميسير المركز وهو رجل اسمه حسين افندي يتبعهُ نحو الستة من اشداء الرجال فتقدم الرجل نحوي وقال :

— أرجو ان تتبعني

— الى اين ؟

— الى مكان ضيافتك . أنت في هذه الليلة ضيفنا الكريم

— انا لا اريد هذه الضيافة واحب ان ارجع الى بيتي

— ترجع الى البيت غداً صباحاً

— ولمَ لا أرجع الآن ؟

— لان الساعة قبيل الصبح . ولا يجوز ذهابك في مثل هذا الوقت اذ لا نأمن عليك من اعتداء معتد

— واين المتصرف ؟

— قد ذهب الى داره

— وددت لو ذهب احد منكم ليخبر اهلي بمكاني

— لك ما تريد

وبعد هذه المحادثة نهضت واقفاً وقلت للقوميسير اني رهين الاشارة . فمشى امامي وتبعنا اعوانه . وما زال يطوف بي حتى أنزلني الى غرفة (المعاينة الطبية) . فادخلت فيها اذ لم يكن هناك موضع هو اشكل بي منها . فلما

استقر بي الجلوس جاءني شرطي فقال :

— ان المتصرف رآك تلعب بقلم من الرصاص كان في يدك . فارسلني لآخذه منك

— قلتم ان المتصرف ذهب الى داره . فكيف يطلب الآن قلمي ؟

فلم يرد الرجل جواباً . وأخرجت له القلم فدفعتـه اليه وذهب عني بسلام . واذ كان الموسم موسم الشتاء وكان البرد شديداً ولم يكن بالغرفة التي ادخلتها كانون ولا نار لتكسر سبرات القر . جعلت المعطف (البلطو) غطائي واعتمدت على ساعدي فنمت

فلما كان الغد انتبهت من نومي فرأيت في الغرفة رجلين . أحدهما قوميسير وثانيهما شرطي . فلما رأيا انتباهي أقبل عليَّ الأول منهما وسألني أصائم انا ام مفطر قلت : أفي السجن تريدون ان يصوم الناس . انا مفطر ثم مفطر ثم مفطر . فقال : هل لك في قهوة وسيكارة : قلت قهوات وسيكارات . فاشار القوميسير الى الشرطي فبادر ثم عاد ومعه القهوة والسيكارات . ولما تعالى الضحى دخل الغرفة جماعة من الشرطة . فتقدم نحوي رجل منهم مسلماً واخذ يعاتبني على ما كان مني في الليل . قال :

— لقد عذبت نفسك الليلة وعذبتنا معك

— وكيف ذلك ؟

— ما اسرع نسيانك . ألم تجعل المتصرفيـة كلها مشتغلة بك . وضربت المتصرف وقلت في مولانا السلطان كلاماً لا يليق بمثلك ان يقوله . وما صدقنا ان رأيناك نزلت الى هذه الغرفة ونمت

فرد احـد الحاضرين على معاتبي منكراً وقال : متى تكلم البك في

مولانا السلطان كلاماً كما زعمت . اني كنت حاضراً فلم اسمع شيئاً مما ذكرت . فاجابهُ ثالث بأن قد سمعني اشتم السلطان فلما رأيت تمادي الجدال بين هؤلاء الاتذال التفت الى معاتبي وقلت : كان ما كان وانا قلت كل ما خطر ببالي وصنعت كل ما قدرت ان اصنع وها انا ذا اليوم رهين السجن . فماذا تريدون مني ؟ فلما سمعوا مني هذا الكلام خرجوا من عندي وبقيت مع صاحبيّ القوميسير والشرطي . وكان القوميسير من اهل (بوسنه سراي) . ذا همة وجد . يأنس المرء الى محادثتهِ ويعجب بادبهِ وحسن اخلاقهِ . فقلت في نفسي يا سبحان الله . كيف رمت الاقدار بمثل هـذا الرجل الشهم في سلك البوليس . ثم علمت ان الحاجة اضطرتهُ . وانهـا لتضطر الى ركوب كل مركب خشن . ولقد قال لي : ان نوبتنـا في الجلوس عندك ست ساعات وسيأتيك بعدنا قوميسير وشرطي فيلبثان كذلك ثم يأتي آخران الى ان يمن الله عليك بالخروج قريباً . على انني ارى بك ضجراً ويأساً ولا احب ان تستسلم اليهما . الرجال يعرفون عند اشتداد اللزبات . وسأطلب الاذن في احضار اوراق للعب لنلعب معك ونعينك على ترويح نفسك من اكدارك . فشكرت للرجل ظرفه ولم اخالفه في نصحه كثيراً

ولا يسألنّ القارئ الكريم عن حال من بات ينتظر ايابي في البيت فذلك يطول شرحهُ ولا يستطاع وصفهُ . وكنت سألت القوميسير ان ينفذ احد اعوانه ليعلم اهلي بمكاني وكان وعدني بذلك ولكنهُ لم يف بوعده . ولما اصبحت والدتي وامرأتي ولم ارد اليهما اوجستا خيفة وايقنتا ان امراً اصابني . فتوجهتا الى بيت الجنرال احمد جلال الدين وسألتاه ان

يستعلم لهما من القصر . ثم اخذتا تقصدان منازل الكبراء فلم تقفا على خبري . فذهبتا الى (غلطه سراي) وجعلتا تسألان عني كل من لقيتاه من رجال الشرطة حتى دلهما احدهم على مكاني . واخبرهما خبري وقد كان ممن شهدوا واقعتي مع المتصرف . فجاءتا الى المتصرفية وطلبتا ان تريائي فلم يؤذن لهما بذلك . وبقيت في السجن اياماً لا ارى احداً من اهل بيتي ولا اسمع عنهم خبراً . اقضي انهاري ماشياً في الغرفة او مضطجعاً على المقعد ادخن السيكارات واشرب القهوة ولا اذوق طعاماً. وفي يوم العيد عيد الفطر وقد وقع في ثالث ايامي بالسجن . جاءني رئيس القوميسيرية من قبل المتصرف مهنئاً لي بالعيد . فغاظني ذلك غيظاً شديداً . فقلت له : لا هنأه الله . أيرى الغبي اني في قصر (طوله بغجه) . مقيم بين ابهة الملك وعز القدرة . ان سره اليوم اني مسجون فربما تأتي الايام بما يطيل اساءته وما ذلك على الله بعزيز

اعوان النقمة

ان في دول الظلم لأعواناً يسعدون في ابانتها . يؤثرون الحكم على اعداء الاستبداد . يستحلون اموالهم وارواحهم حتى اذا استمرأوا الغواية وزين لهم الغرور ان يضيموهم استضعافاً وان يحقروهم استخفافاً وقفت النجدة نجدة الاحرار في وجوههم واهوت عليهم يد اليأس بسيف من سيوفهِ القاطعة لا يصيب منهم عضواً الاَّ براه بري القلم . اولئك الطغام خلقوا بغير قلوب فلا يرحمون ونشأوا بوجوه لا دماء فيها فلا يستحون . ما تفردوا بفتى حر الاَّ ساموه عذاباً فسخروا من عقله وضحكوا لبكائهِ فلا يزالون بهِ حتى يواروا شمائله ويدفنوا معهُ فضائله . وقد كان عبد الحميد يبغض احرار الامة ويطاردهم لأنهم اقاموا له بالمرصاد فاحصوا سيئاتهِ في كتبهم وعيروه بمثالبهِ في منشورات فصولهم . اما اعوانه فلم يبغضوا الاحرار حباً في ذاتهِ بل رغباً في ذهبهِ ورهباً لبطشهِ . ثم لم تزل تلك العداوات تنمو في صدورهم حتى انقلبت غرائز . فبات عدوانهم للاحرار طبعاً فيهم . واني لذاكر في هذا الفصل بعض ما بقي بالخاطر من بغي هؤلاء القوم لتكون حجة عليهم خالدة خلود الابد وليتعظ بها سواهم

جاءت خادمتي يوماً من الايام ومعها فولاد يكن وهو اكبر ابنائي وطلبت الى الموكلين بحفظي ان يدخلوا بهِ عندي ولم يتجاوز عمره العام الواحد يومئذ . فخافوا ان تكون في ثيابه ورقة اخفاها اهل بيتي . ففتشوا الطفل فلم يجدوا معهُ شيئاً . ثم خافوا ان اكون كتبت ورقة واعددتها ليوم يجيء الطفل وان انال غرة منهم فاجعلها في ثيابهِ وما

كتموا ذلك حتى عن الخادمة . فرجعت آيسة وهي لا تكاد تصدق ما سمعت اذناها وما رأت عيناها

وقد اذنوا ذات مرة لوالدتي ولامرأتي ان تريا ني . ولكن جعلوا لهما شرطاً ان لا تكلماني الاَّ باللغة التركية وان لا تسرا اليَّ الحديث . فلما ادخلتا عليَّ احاط بنا رجال الشرطة من كل ناحيـة . فجعلت امي تؤنبني فتقول : بلغني يا بني من المتصرف انك نطقت في سلطاننـا بكلام غير حسن . من أين جاءك هذا الادب الجديد وانت تعلم اننا نحيا تحت امنهِ ونرتع في بحبوحة نعمهِ ولا اصدق ان تكون قلت هـذا الكلام وانت اشد الناس اخلاصاً لمولاك . فقلت : يا اماه . اقصري في ملامك . اني عنك في شغل وان في فؤادك مقدار ذرة من حب هـذا الرجل فابرئي مني الى الله . ثم التفت الى امرأتي وقلت : اود ان تلزمي بيت زوجك وان لا تجعلي لقدميك مراحاً على ارض الظلم . فخرجت المرأتان وهما يذرفان الدموع

ولما كانت الليلة العشرون بعـد دخولي السجن . بلغ مني اليأس اقاصي الروح . وكانت النوبة في تلك الليلة للقوميسير شاكر افندي الذي تقدم ذكره . فاقترب مني بكرسيه واخذ في يده اوراق اللعب وجعل ينظر فيهـا على الطريقة المعروفة عند الغربيين وهي المسماة (بسيانس) اي الصبر . ويزعم الناس ان نابليون الأول كان يسلّي نفسه بهذه اللعبة حين اعتقاله بجزيرة القديسة هيلانة . فقال شاكر افندي :

— هذا فأل مجرب . لا يخطئ ابداً . فاضمر في نفسك ما تريد معرفتـه وانا اصف الورق ثلاث مرات . فاذا نجح الفأل ثلاث مرات

فرادك لا محالة ميسر . واذا نجح مرتين فيغلب تيسره على تعذره . واذا نجح مرة واحدة فتعذره اقرب من تيسره واذا لم ينجح الفأل ولا مرة واحدة فدون مرادك اجتياز ما بين السماء والارض

— سل ورقك أأخرج من السجن قريباً ام يطول فيهِ مقامي

فنظر الرجل في الورق وأجاله ثلاث مرات فلم ينجح في واحدة منها . فقلت :

— سل ورقك أأُرسل قريباً الى أقاصي بلاد الاناطولي منفياً ويكون ذلك في غفوة من عيون أهلي ويطول في النفي مقامي ؟ فامتنع صاحبي بادئ بدءٍ ثم أجابني الى طلبي فاجال الورق ثلاث مرات فنجح الفال فيها جميعاً . فاخذ الورق وجلد بهِ الارض وقال هذا فال غير صادق . قلت : وكل فأل هو غير صادق . وتركنا بعد ذلك ما كنا فيهِ من الفأل واضطجعت مكاني فغلب عليَّ النوم . فانتبهت على يد تهز أحدى كتفيَّ هزًّا . واذا رجل ربعة القامة ممتلئ الجسم عليهِ سيماء أهل الجنايات وخلفه شرطي بيمينه مصباح فيهِ شمعة مشعلة . فنهضت فوجدت القوميسير شاكر افندي قد انتهت نوبته وجاء مكانه رجل آخر اسمهُ حسين افندي وهو كذلك من أهل (بوسنه سراي) . وكان حسين افندي مطرقاً مفكراً . لا يبدي حراكاً . فقلت للرجل الذي أيقظني :

— ماذا تريد ؟

— اريد ان أذهب بك الى السجن

— أولست اليوم مسجوناً ؟

— كلا . ما كنت الى الساعة الاَّ ضيفاً ولكنك منذ الآن مسجون

— كم الساعة الآن ؟

— نصف الليل

— أنا لا أبرح مكاني هذا قيد شبر . واذا شئتم ان تذهبوا بي الى السجن فليكن ذلك نهاراً

— لا تخف

— ما أنا بخائف ولكني لن أبرح مكاني

فلما سمع الرجل مني هـذا الكلام فكر ملياً ثم ذهب فغاب عني دقائق قليلة وعاد يستعيد معي كلامه غير انهُ قال لي : الطـاعة خير من العصيان واذا لم تذهب معي مختاراً أخشى ان يذهبوا بك مكرهاً وذلك ما لا أحب لك

— اذن فاذهبوا بي كرهاً . أما أنا فلن أختار المسير في مثل هذا الحين الى موضع لا أعرفهُ

— ولكن كيف تستطيع ان تغالب الحكومة . دع عنك العناد . ان وراءه لندماً طويلاً . واذا أوجست من ذهابك شراً فذلك وهم منك . واني لأقسم لك بالله ان لا يصيبك اقل مكروه

— لا سبيل الى ما تريد . فاقضِ ما انت قاضٍ

فذهب الرجل والشرطي الحامل للمصباح وبقيت مع حسين افندي والشرطي المناوب . فقال حسين افندي : ارى يا بك ان لا تخالف القوم فتحرجهم معك ولا خوف في ذهابك مع الرجل والسجن ليس بعيداً عنا . ثم عاد الرجل ومعهُ حامل المصباح فقال لي :

— اقسم لك برأس السلطان انك لن يصيبك اذى . واستحلفك

بكل عزيز عليك ان لا تكرهنا على ابداء الخشونة

— حلفت لي بالله فلم اصدق حلفتك ثم حلفت لي برأس السلطان فأيقنت صدق ما تقول وها انا طوع اشارتك فاذهب بي الى حيث تريد

السجن الجديد

نادى السجان بأعلى صوتهِ : مَن القادم وجاوبهُ مَن يقودني مسرعاً : لا غريب بيننا . فسمع صرير الباب وأجتزنا ساحة حتى وقفنا امام مديره . فتأمل الرجل وجهي وقيد اسمي في دفتره وذكر من اوصافي ما يحتاجهُ ثم سعى بي رفيقي الى ناحيـة . فنادانى ان طأطئ رأسك واصعد السلم على مهل وصعد وانا على اثره . فدخلنا حجرة خالية ما بها الاَّ خوان في وسطها والى جانبهِ كرسي فيهِ خرق واسع لم انتبه له . فثبت الرجل شمعة كان اخذها على ذلك الخوان واشار اليَّ بالجلوس على الكرسي وحين اردت ان استقر فوقهُ هويت من خرقهِ الى الارض حتى التصقت ركبتاي بصدري فجعلت احاول الخلاص فلا استطيعهُ وبهت الرجل فجعل ينظر اليَّ دهشاً ولا يتحرك من مكانهِ . ولم ازل اعالج ذلك الخرق الى ان انقلب بي الكرسي على الارض وخرجت مجهوداً ينقط جبيني عرقاً . فقلت : ساء ما تتبوأ من مقاعدك ايتها الدار . ووقفت انفض التراب عن ثيابي . وحين عاودت صاحبي السكينة ذهب وعاد وهو يحمل فرشي وكانوا اتوا بهِ من داري قبل ذلك بأيام . فجعله على ارض الغرفة وودعني وانصرف

فلما اطمأنت نفسي الى الوحدة هاجت لوعاتي وجاشت همومي وسالت عبرات لا يكتنفها الصبر ولا ينهنهها الوقار . ما ارخص تلك اللآلئ عند من كان على شاكلتي من اهل الضعف . هذا ذنب اقر بهِ طائعاً واسجله على نفسي آسفاً . وان من العار على المجاهد في حب وطنهِ ان يغلب عليهِ طبع السيدات فيبكي في موطن هو أحق بأن يبدو فيهِ بخوتهِ . ولكن كذا كان . بكيت ثم بكيت ثم بكيت . لا القوافي اسعدتني ولا الحكمة صاحبتني ولا العزيمة اهابت بي . ان هو الاَّ الدمع دجانًا وتهتانًا . بللت بهِ مواضع ألهبها الحزن فكنت شاعراً في نظم العبرات ولم اكن شاعراً في نظم الابيات

يا لك من ليل اسود الاهاب موحش الجوانب . اظلمت هواديه وما ستنارت تواليه . ويا لك من مثوى بين تلك الالواح المحددة لتكون ارضاً والمشبكة لتكون سقفاً . هكذا طال الحزن فغشيني نوم كأنهُ الموت ظللت صريعهُ الى الصباح . وما انتبهت الاَّ وقد بدا النهار مفتوق الاديم أغرَّ الطلعة . فاستويت على حرف الكرسي المخرق واذا كوة مفتوحة في بعض الحيطان تناصفها سلالم لا ارى اوائلها ولا اواخرها . أطل منها رجلان . قال احدهما لصاحبهِ :

— ما هذا الذي ارى ؟

— لعله ضيف جديد

— لا مرحباً بهِ . والله لكأنهُ من اوز البر

— مثل هؤلاء لا ينبغي ان يصطبح بأوجههم . فهي شؤم على من يراها

— هذا وجه خلق ليزرع فيهِ الفجل

— خلق ليبصق عليهِ

فصحت بالرجلين : ماذا تريدان مني . خلياني وشأني . لست من حزبكما

فقال احدهما : ألا تسمع . هذا يتكلم . ما كنت احسبهُ انساناً . فلما لم ينصرف الرجلان آثرت الصمت حتى ذهبا عني . ووقفت انظر حولي عسى ان اجد شيئاً اتلهى بهِ عما انا فيهِ من العذاب . فجعلت آخذ اعواد الكبريت وارصفها على المائدة في اشكال مختلفة ثم اعدها ثم اشعلها واحدة واحدة فسئمت هذا اللعب فقمت امشي في الغرفة وأعد خطواتي . فما بلغت نحو الالف الاَّ وقد اضجرني العد . فرأيت ان انظم شيئاً من الشعر فاستعصى عليَّ ولم يجرِ على لساني ولا بيت واحد . فجعلت انشد ما احفظ من اشعار القدماء . فما راقني شيء منها وما زلت في هذا العناء الممض حتى امسيت

فلما مضت من الليل أوائله استدعاني مدير السجن الى غرفتهِ . فذهبت . فاكرم وفادتي وسقاني الشاي واقبل يحادثني باطيب ما سمعت . ولما أردت الانصراف من عنده صعد بي الى حجرتهِ ووقف بي امام كتبهِ وقال :

— تعلم ان الكتب السياسية او العلمية لا تدخل بيوتنا فكيف نطمع ان نجعلها عندنا في مواضع مثل هذا . ولكن أمامك من الروايات ما شئت . كلها مترجم من الفرنساوية الى التركية . فاختر لنفسك احدى الروايات لتكون تسلية لك في وحدتك . فسرني من الرجل هذا الظرف

وشكرت له جميله واخترت احدى الروايات وكان فرحي بها فرح الفقير أصاب كنزاً . وبتلك الرواية قضيت مابقي من ايامي بالسجن . وكان المدير يدعوني كل ليلة اليه فيحادثني ويخفف عني ما أجد من كمد الوحدة

الاحرار في بطون الارض

قد يحمل بعض الناس اكثر ما انا ذاكر في كتابي هذا على المبالغة . فيقولون شاعر يجري مع الخيال . كما حمل بعض اصدقائي ما سبق من فصولي على هذا المحمل . ولكن الذين بلوا بمثل ما بليت بهِ يجدوني مقصراً ولولا جرأة تعودتها منذ خلقت لامسكت عن ذكر اشياء كثيرة لكي لا تعتورها هذه الشبهات . غير انني لا ابالي الثناء ولا ابالي الهجاء وانما ابالي ان يصدق فيَّ احدهما . فليسمع القارئ وليسأل

اخبرني مدير السجن ان بالسجن الذي كنت بهِ سرداباً مظلماً تحت الارض . ارضهُ الوحل وسقفهُ الحجارة لا ينفذ اليهِ ضياء النهار ولا يتهادى فيهِ نسيم الشمال . وهنالك برميل فيهِ ماء غير مصفى والى جانبهِ صخرة نحتت لتكون كرسياً يجلس عليه المسجون . موثقاً بالاغلال والاصفاد ولا يجدد الماء الذي في البرميل الاَّ اذا نفد . قال وكانوا يدعون المسجون هنالك الى ان يموت

قلت : — اراك تخبرني اخبارك قائلاً كان . وهل تبدل ذلك الآن ؟

— نعم تبدل كثيراً في الاستانة وهي كما علمت امام عيون الدول . اما الولايات البعيدة عن الثغور فلم يتبدل فيها شيء . وقد علمنا ان السلطان امر بزيادة التعذيب في سجون الولايات البعيدة وفيها اليوم ما يذهل اهل الرأي ويستبكي كل حر في الرجال

— وما يمنع السلطان من رقبة الدول عن انزال العذاب باعدائه . وهو كل يوم يقتل ويسجن وينفي . لا تسأم ذلك نفسه ولا يمجه ذوقه

— أجل . غير انه يقتل سراً لا جهراً . وأحوال السجون بالاستانة لا يعلمها أحد مثلي . ولقد يؤتى بالرجل المظلوم فيبقى في السجن شهوراً واعواماً لا يسأل عنه سائل ولا يعرف هو الجرم الذي سجن من أجله . واكثر أهل التهم السياسية يظلون بمعزل عن سواهم من المسجونين . فلا يؤذن لهم بمخالطة احد ولا يهنأون بزيارة قريب من اقاربهم . أما المكان الذي احدثك الآن بحديثه فلم تنزل اليهِ احداً من الناس ولا يعيش فيه احد . على اننا انزلنا اليه بعض الأرمن الذين وقعوا في ايدينا ايام الحوادث الأرمنية . وهؤلاء لم يمكثوا بذلك المكان الاَّ يوماً واحداً . ثم نقلوا الى سجن الضبطية ونفوا منهُ الى سجون القلاع والولايات . وقد كان بالغرفة التي انت بهـا الآن رجل يزعمون انه من حزب تركيا الفتاة . بلغ منهُ الجزع مبلغه فهمّ ذات يوم بالانتحار . ولو لم نتداركه للقي حتفهُ . ولما رأيت حاله من اليأس وما حل به من الوجل اشفقت عليهِ واحببت ان اسليه بعض احزانه . فاجتنبني واساء بي الظن . ولقد قال لي مرة : أنا لا احب الجواسيس ولا اتقرب اليهم ولا ادعهم يتقربون اليَّ . فقلت له : لو كنت جاسوساً لما عشت براتب قدره اربع ليرات طول هذه السنين . قال : انت تزعم ذلك

وانا لا اصدقك . وكان هذا آخر ما كلمني به الى أن منَّ الله عليهِ بالخروج

— كيف يأخذون الناس ليلقوهم في البحر ؟

— ذلك ما لا علم لنا به . لانهم لم يأخذوا منا احداً وألقوه في البحر . وانما يأخذون من يريدون اغراقهم من نظارة الضابطة . هنالك خزينتهم . ولا يعلم ذلك كل مستخدم في تلك النظارة . بل يعلمه اناس من كبارهم . فهم الامناء على هذه الاسرار

— وهل سجن عندكم كثير من الاحرار غير من ذكرت

— بلى . ثم اعلم ان بجانب الحجرة التي انت بها حجرة ثانية عرضها متران وطولها متران . هذه يجعل بها من عظمت ذنوبهم من اهل السياسة ولا يوضع فيها الاَّ رجل واحد . لا يقدر ان يضطجع ولا ان يجلس بل يظل واقفاً حتى تتخاذل قدماه . فان باح بسره اخرج من الحجرة وامضي فيهِ حكم القوم وان ابى الاَّ انكاراً بقي مكانه حتى يبوح . وما باح لنا احد بسره والذي اراه انهم لا سر لهم

بعض ما وقع ايام سجني

انما يعرف الصديق الوفي عند اشتداد الكرب وتوالي الحوادث . أما ادعاء الودّ والعيش في خفضة والحال في استقرار فذلك يتساوى فيهِ صادق وكاذب . وفي كرام الأعادي من يشفق على عدوه اذا فلت مرته ومال ركنه . ولله أيام الشدائد . تعلم من حيث تستبكي وتهب الموعظة من حيث توجع

سجنت فأعرض عني اخوان الصفاء . راعتهم نكبتي وباعدت ما بيني وبينهم محنتي . فبالغوا في الحذر من جانبي ورثت يومئذٍ حبال كانت احكمتها الألفة في ظلال الأمن وفي ساعات الغرور . ولم يرث لبلواي ولا بكى لمصرعي سوى قليل من الاخوان وواحد من الاعداء

أما الاخوان الذين استهانوا الاهوال في جانب الاخاء واقبلوا على مورد الموت الاحمر يطلون حيث جندل أخوهم الشهيد فاولئك منهم زكي الحسب مصطفى بك المخزومي أحد أعضاء مجلس المعارف اذ ذاك ومنهم الشهم الأوفى المرحوم محمد صديق خان الحسيني وهو أحد أعضاء ذلك المجلس وقد تقدم ذكرهما . وآخرون غير هذين الصديقين أدع ذكرهم اجابة لملتمسهم . فكان عدد الذين أهمهم أمري لا يزيد على الخمسة . جزاهم الله عني خيراً اني عاجز عن جزائهم . ولقاهم من السعادة بقدر ما ابتلاني بهِ من الشقاء

وأما العدو الذي نسي يومئذٍ عداوته فهو زهدي باشا ناظر المعارف كان سوساً لخزائن الحكومة . لا يدع قطعة من الذهب الاَّ نخر فيها . لا يرحم في سبيل آرائه صغيراً ولا يوقر كبيراً ولا ينام عن خصم حتى يرديه ويزيله عن موضع عزه . وقد كان لي واياه شأن من الشأن . وحين أمال الدهر عماد سلطاني واسلمني الى من يطيل همي وتسهيدي . امر زهدي باشا بصرف مرتبي وأرسله الى أهلي وحمل رسوله من كلام الودّ وجميل العزاء ما كاد يثلج صدورهم . ثم ارسل اليَّ يقول : انت اليوم رهينة السجن . لا حول لك ولا قوة واخشى أن يحدث لك من اليأس ما يذهب بعزك . فاصبر لن الصبر درع الكريم اذا نابته نائبة . وسلني كل حاجة تكون

عرضت أقم لك بقضائها . فرددت الرسول أحسن ردٍ وقلت ان حاجة الحرّ في رأسه لا في صدره واذا بخلت الايام بها فلا ألتمسها عند من هم ابخل منها

وبينما انا في السجن . لا علم لي بما تجري به الاقدار . اذا جماعة من المظلومين يقادون الى ذلك البيت غير المحبوب . عضت السلاسل على سواعدهم عض الثقاف على صم الانابيب . اخرجتهم يد الجور من مستقر دعتهم وقادتهم الى مستثار فزعهم . احد اولئك المظلومين هو المرحوم جبرائيل افندي غرغور وهو من مشاهير المحامين وكان وظف عضواً بامانة البلدة . ثم رجل من الارمن وولده معه وهما من مشاهير تجار الجواهر والحلي . وكان السبب في سجن المرحوم غرغور انهم عثروا في داره على بعض مطبوعات الاحرار . فاتوا به مسرعين ولم يمهلوه ان يلبس ملابسه . وانما اقام الحجة على ذلك الشيخ الجليل ان احد نجليه وهو نعوم افندي غرغور كان فرّ الى اوروبا ولحق بجماعات المجاهدين من الاحرار ولم يثنه عن جهاده وعد القوم ولا وعيدهم . فقالوا ننتقم لأنفسنا من الاب اذ فاتنا الانتقام من الولد

والرجلان الجوهريان حسدهما هارونا شي جوهري عبد الحميد . وحساد التجارة شر من حساد الدولة . فوشى بهما الى مولاه زاعماً انهما من اعوان رشاد افندي ولي عهد الملك العثماني . فحلت بالرجلين نقمة الظالم الجبار وخلا الجو لوجه هارونا شي وفاز بربحي التجارة والوشاية . وقد ارسل غرغور افندي ورفيقاه الى ولاية قسطموني وبها مات غرغور في سجنه وخلص الاب وابنه عند اعلان الدستور

هذا بعض ما جرى في السجن . وما جرى في بيتي اجلب للعبرة وأدعى للعجب . فقد ملك الجواسيس الطريق واقاموا يرقبون من يزور اهلي . فان كان عثمانياً تلاحقوا به واخذوا بطوقه وان كان اجنبياً حاربوه بوشاياتهم وهي لا تضره ولا ترهبه

الى الله المشتكى من اهوال تلك الايام . عيون يوافظ تحرى مواضع الشبهات وأيدٍ تحتفر القبر لمن عز ناصره وهان جانبه وقلوب خلت من جوانبها مواضع الرحمة فقست فهي اشد قسوة من الحجارة . وان بداري لنحيباً تئط له الاركان وتزلزل قواعد البنيان وحزناً يتصلصل بين الزائب والنحور . ثم امرأتان أم وزوجة وطفلان لا يعلمان من الحياة شيئاً . اشكلت عليهما فحوى الدموع فاحرقت قطراتها وجناتهما فهما يتململان . ما حلت الايام منهما عقد اللسان فيكون منهما معوان على الشكاية بل ألهما الحزن الهاماً . والبكاء في الانسان سجية وفي ارتجالات الاعين ما لا تقوم له بدائه القرائح . سر ايها القلم هذا زمانك قد خلا زمن العبرات

استنجدت المرأتان كل من ظنتا بهِ نجدة وطرقتا كل باب حسبتا وراءه ملجأ . فاوصدت الابواب وتضاءلت عزمات الكرام . ثم صاح بهما الشمم قفا فوقفتا . ذلك انذار اليأس يستعيد الفتوة في النفوس

ولم انسَ مما امتحنت ربعي بهِ حوادث الايام شيئاً مر بي اوثر ذكره في سطوري هذه . ان في ذكره لعظة خالدة وحكمة بالغة يأخذ منهما اللبيب على قدر لبه

اصبحت في بعض ايامي بالسجن كما يصبح من قضى ليلته على شوك

القتاد . اردت النهوض تخانتني قدماي . فاستجمعت قوتي فعل اليائس من حياته اذا هوى في جب ذرعه الف ذراع . فوقفت اجيل طرفيَّ يمنة ويسرة وهما يتساقط نورهما من اطراف اهدابهما . هذا موقف الحيرة . لو تمثل لي الموت شخصاً ونزا اليَّ بسنانه وافترّ عن نواجذه واحدق بباصرتيه لما وجد فيَّ مهزاً ولا انس مني ذعراً . فطال وقوفي زمناً لا ادري مقداره . واني لكذلك واذا السجان سمعت صرير مفتاحه على قفل الباب وبدا لي وجهه الأربد في ابتسامه القبيح . فقلت لا حيي الله هذه الوجوه . فسلم فسلمت . ثم سألته :

— ما جاء بك الساعة ؟

— خدمتك

— جزيت خيراً . لا اريد شيئاً

— ألا تفطر ؟

— كلا . ولكن ائتني بالقهوة

— والدتك جاءت وهي تريد ان تراك . فطلبت الى المتصرف ان يأذن لها في زيارتك . فاذن لها ان تراك من باب السجن ولم يأذن لها في الدخول عندك

— اذهب فبلغها عني اني بخير واني اطلب منها دعاءها واستمنحها رضاها ولا اريد ان اواجهها في هذه الدار المظلمة جوانبها

— لا سبيل الى ما سألت . وما هي ببارحة ان لم ترك بعينها

فلم يبقَ الا الرضاء . فتبعت الرجل حتى اذا انتهينا الى دهليز السجن استوقفني جانباً وفتح الباب لوالدتي واقام دون ممرها سلسلة الباب .

فاشارت بالتحية واشرت بالتحية وأومأت اليها لتعود فعادت. ورجعت الى غرفتي مسرعاً اكفكف عبرات استنزلها الهول المتجدد . وقد علمت ان الوالدة اذا رأتني بذلك المكان غلب عليها الحزن وانثنت مثقلة بفادحات الهموم . ولكن قلت الحيلة في درء ما يتوقع . فايقنت ان لا سبيل الى الراحة في ايدي قوم تستطيب لحوم الناس أنيابهم وتستلذ الدماء افواههم. واقمت انتظر ما سيكون

من السجن الى الباخرة

اصبح بسجن وامسي بباخرة . سبحان مقلب الملوين في ثنيات الأبد . خطى معجلة الى شقوة مؤجلة . يا بعد غاية المقادير

زارني قوميسير المركز فقال سلام . قلت سلام . فافترّ ثغره عن تبسامة كأنها تبسامة الجدث لميت جديد . ثم دنا حتى حال بيني وبين الوجود . فانشأ فصول الخدع فقال :

— اما ملات مقامك في ضيافتك هذه ؟ انا ملالناك وسئمنا طول لبثك . وسنشرب القهوة عندك الليلة فانهض غير مخذول ولا مروع

— الى اين تذهبون بي الساعة ؟

— الى ساحل النجاة

— الحمد لله على نعمته

فمشى البشير امامي ومشيت وراءه حتى اجزنا باب السجن . فرأيت في طرقات المتصرفية طوائف من رجال الشرطة يتغامزون ويتسارون .

وما زلنا في صعود وانحدار الى الباب الجنوبي . فاذا عربة يحيط بها جماعة من فرسان الجندرمة . واذا في العربة رجلان احدهما من رجال الملكية وثانيهما من ضباط الجندرمة . فتقدم القوميسير ففتح باب العربة وادخلني فيها ثم وقف امامي وقال :

— ما امامك الاَّ كل خير . لا تخف شيئاً وسألحق بك هنالك ويكون لي معك حديث تستطيبه

وما اتم الرجل كلامه الاَّ وانطلقت بنا العربة تحيط بها الفرسان حتى لظننت اني قد صرت ناظر الداخلية او ناظر المعارف . وما برحت بنا تهوي مخارم الطبخانة الى ان وقفت عند شاطئ البحر . وما هو الاَّ مثل لمح بالبصر واذا بالباب وقد فتح واذا بنا قد نزلنا . فأقبل نحوي الرجل الملكي يستلفتني الى زورق كبير كان راسياً على مقربة من مكاننا . فاشار يدعوني الى النزول فيه . فنزلت وانا في كل خطوة انتقل من يد الى يد

كرة طرحت بصوالجة فتلقفها رجل رجل

فلما استقر بي مجلسي جلس الرجل الملكي الى جانبي وجلس الضابط امامي وسار بنا الزورق في موج متراكب وريح طيبة لا يسمع من الزورق الاَّ قعقعة اضلاعه وايقاع مجاذيفه وضربات الامواج في حيزومه وجوانبه . فكنا نجتاز البواخر وعليها الرايات العثمانية والاجنبية فلا نقف عند واحدة منها . فخيل اليَّ ان قد دنت الساعة وازف فراق الدنيا . وما لبثت ان راجعت نفسي وقارها وغلبتها على وجلها فتأملت وجهي الرجلين الملكي والضابط واذا هما يتغامزان . فقلت قد وضح الصبح لذي عينين . انا لا ادع هذين الصاحبين يباعدان مجلسي قيد ذراع ومتى آن لي الغوص

في اليمّ جمعت بطوقيهما اليَّ فغصنا جميعاً . وانا لعلى مقربة من (سراي بروني) وهو موضع يزعمون انه اتخذ ليلق منهُ الابرياء في البحر . فارتفعت لنا باخرة لا كالبواخر . كأنها الزورق في حالها . خافتٌ صفيرها بارد زفيرها . علا الطحلب جوانبها فكساها مثل السابري المضاعف نسجه . تدلى من جانبيها سلمان يصعد عليهما المسافرون وينحدرون . فرسا بنا الزورق الى جانب الباخرة . فتبينت اسمها منقوشاً بالخط الكبير (بحر جديد)

فما راعني الاَّ احد صاحبي وقد اخذ بيميني وجذبني الى نحو السلم . وما همت بصعوده الاَّ وتخاطفتني الايدي وعلت في اذني اصوات من معي يقولون (بيورك . بيورك) تفضلوا تفضلوا . فما خلصت من ايديهم الاَّ بعد ان بلغت أعلى الباخرة

فادخلت المجلس واخذ حراسي باطرافي . وقد اشتهت نفسي التدخين فمددت يدي الى ملابسي لأستخرج منها سكايري . فقبض عليها احد الجلوس قبضة كاد يقتلعها من اصلها . قلت :

— مالك ؟

— ماذا تريد لتصنع ؟

— اريد ان استخرج سيكارة ادخنها

فلما رأى السيكارة في يميني سري عنهُ وهدأ باله . فظللت بين القوم ساكتاً لا احادثهم ولا اجاوبهم اذا حادثوني . ولم تلبث ان جاءنا قوم من الشرطة ومعهم فراشي الذي كنت ابيت عليهِ في السجن وما يتزود به المسافر من طعام وغيره . وكنت سألت الملكي الذي صحبني الى الباخرة ان يخبر اهلي بمكاني عسى ان أتزود بنظرة اليهم واوصيهم وصاتي . فوعدني

وعداً ظهر لي المطل في اعقابه . وقد طاف اهل بيتي دور الظلم يستخبرون عني . فعادوا وهم لا يعلمون لي مستقراً وادرعوا الحزن الطويل واليأس المرير

نظرة في حال فروق

يممت فروق مدعواً ونزحت عنها مجفواً . فلا الدعوة أبطرتني ولا الجفوة كفرتني . وما زلت من لدن وطئت مهادها وعللت انهارها وشممت طيبها ورعيت كواكبها صادق الود . مخلصاً في السر والجهر . وما فروق الا وطن ميلادي استهلت فيها حياتي ونما في أرضها عودي . بذلت لها روحي ولا أمن بها ومنحتها آمالي ولا ادل بها . وكانت شقوة فغلبت على أمري وفارقتها فراق الجبان روحه ونزعت عنها نزوع الصب عن موطن صبابته

رأيتها اختلفت فيها الاهواء وكثرت المطامع . خليفة الله فيها يقتل عباد الله ويستحل ما حرم الله من أموالهم وأعراضهم . ورجال الدولة وحماة مجدها عصبة من أهل الحرص يسلبونها قليل ما أبقت لها الايام من طارف لا يجمل عده وتليد لا يستطاع حفظه . ويحمل العرش يومئذٍ رجال كادوا يشاركون الله في ملكه وينكرون عليهِ قدرته . فهالني ما رأيت . وددت ان لو قامت نوادبي ولم أرَ تلك الفادحات . فعاهدت الله ان لا اسالم خائناً ولا اسكت على عداء . وما زلت اجالدهم حتى كاثروني . وما سلاحي الا يراع تشذر فلا يفصح صوته وخاطر نضبت ينابيعه فلا يجري معينه . وان امامي لرجالاً اولي قوة وسلطان لا تأخذهم صيحة ولا يرهبهم

بطش . وقد خذلني من خذل من الانصار . فبقيت في صغر قدري وضعف ركني اسير من لا يرحم وعاني من لا يفدى

ثم المجاهدون الاحرار يسترجعون بالرغبة او الرهبة والجرائد تحيي الظالم في صبحه ومسائه تحيات طيبات . ومن رزقهم الله الكفاية من اهل الثراء وحماة الذهب يتسابقون الى عاليات المراتب . يتفننون في سياسة الفوز . فقوم يحملون دنانيرهم وآخرون يتقربون بوشاياتهم وفريق يحكم الحيلة حتى ليخدع عبد الحميد ويسرق منهُ حظوته ويختلس رضاه . فاوجست خيفة وملئت يأساً

يموت خليل رفعت الصدر الاعظم . فيولي مكانه سعيد ويسرع فريد الى فروق مطالباً عبد الحميد بالصدارة . يقول : جعلتموني والياً على قونيه وهي دون قدري فاطعت واخترت الصبر . ثم دعوتموني لاولى الصدارة فقلدتم امرها غيري قبل ان أصل اليكم . فقد اصبحت منذ اليوم حديث الناس في انديتهم وسمرهم . يسخرون مني ويستهينون بي . فأفيلوني من ذل لم استوجبه بعصيان . فيأتيهِ البشير من عند السلطان يحمل وسام الافتخار المرصع . فيرجع فريد داعياً شاكراً

ثم تحاصر عيون الظالمين وارصادهم بيوت المخلصين مثل المشير فوآد والفريق احمد جلال الدين ويتسع مجال الشر لفهيم ومحمد ابي لحية وابي الهدى ومحافظ غلطه سراي وناظر الضبطية . فيا من رأى عاصمة ملك تقاسم هدمها الملك والرعية

لهفي على فروق في تلك الايام السود . عروس في نعش او جنة يملكها الحريق . لو وفت الايام بامانيّ الجبار لنال من فروق ما نال نيرون

من روما . ولقد فعل . والغرائز اكثر تشابهاً من الوجوه وحوادث هذه الحياة تستعاد مختلفات . والتأملات قاصرة والعقول حيارى وصحف التاريخ اهملت الكثير وحدثت بالقليل

وداع فروق

ودع (فَروق) لقد أجدَّ فراق ... ماذا تطيق ؛ هل الوداع يطاق
هي وقفة بين التعلل والأسى ... يفنى الرجاء ويخلد الميثاق
أعط المنازل حقها يوم النوى ... هذا الفؤاد وهذه الأحداق
واستبقِ شعرك للقاء اذا دنا ... حسب النوى ما تنشد الآماق
قد كان شوقٌ ثم نؤت بحمله ... فلتنظرنْ ما تصنع الأشواق
يا عاشقاً لم يدرِ ما جهد الهوى ... أرأيت ما يتجرَّع العشاق
اكتب شجونك فالشعاع يراعة ... والبحر حبرٌ والسما أوراق
فعسى يسوق الدهر ما سطرته ... لبنيه بعدك فالشجون تساق
السابقوك الى المصارع أدركوا ... غاياتهم ولك استجدَّ سباق
فاغلب بعزمك امر حزمك وانصلت ... تلحق بهم عقبى المجدّ لحاق
رقأت دموع قد جرت لفراقهم ... لم يبقَ دمع بعدهم مهراق
أما الجفون فما بها متسهد ... أما القلوب فما بها خفاق
والروض موشيّ الطرائق زاهرٌ ... أبداً وسائغ مزنه رقراق
والطير في دوحاته متجاوب ... والبان في اثلاته مطراق
وجد السلوّ الواجدون وهكذا ... كأس الهموم تعاف حين تذاق
سيفيق من سكر الصبى نشوانه ... فالسابقون قد انتشوا وأفاقوا

استودع الله الرفاق جميعهم ولسوف يتبع الرفيق رفاق

هذا كلام ودّعت به (فروق) . قلته حين اختفت عن عيني . وانما يجيش الشعر في خاطر الشاعر بمثل تلك المواقف

على ظهر قصر سابح . في لجج البسفور . بين شطي اوروبا وآسيا . من الوطن المحبب الى غاية مجهولة . فراق أهل وولد . من غير توديع ولا تسليم . كل ذلك تحت ليل كأنه ظلّ الشقاء وسماء كخاطر الواله . في حيث تتراءى تفاريق نور على البيوت كبسمات ارواح المظلومين من وراء حجب الوجود . لقد كنت شاعراً في ظلمك يا عبد الحميد

ودّعني الرجل الملكي وبقي معي رفيقه الضابط ورجل من الجواسيس . فلما استقرّ بنا المجلس التفت الضابط نحوي . فقال :

— لا تهمن نفسك . لن ترى في سفرك هذا الاّ خيراً

فدخل الجاسوس في الحديث وجعل ينظر الى وجهي نظر الشامت ثم رأى ان لا يكتمني ذلك . فقال

— وما يهم البك من سفره هذا . لقد لقي جزاءه . ولو تدبر الأمر لكفى نفسه أحزانها اليوم . كلنا عرفنا ان سيكون مصيره الى مثل ما هو فيه الآن . قضاء الله وقدره ولا حيلة للمرء في قضاء الله وقدره . ولقد كان البك كثير الاعجاب بنفسه . يحتقر الدنيا ومن عليها . فكم مررت به في اختياله وكبريائه فازدراني وأعرض عني بوجهه . ما حسبته نسي ذلك . قلت:

— ومن تكون ويحك . هذا وجه انكره ولا اذكر اني بليت بشؤمه الاّ في يومي هذا

— عجباً . تبدي التغابي عني وانت اعرف بي من ذات نفسك

فادركني مثل الجنون من عناد الرجل وكدت أهوي على وجهه بلطمة تهشم انفه وتهشم ثناياه . غير انني استحيت من نفسي ان لا اكون مالكاً لقيادها في مثل تلك الساعة . فزجرتها فازدجرت . ثم قلت للجاسوس :

— لو كنت عرفتك لنالك مني ما نال اخوانك

— كأني بك يومئذٍ حاملاً عليَّ بعصاك تريد ان تضربني . اما لتلفيتك كما تلقيت غيرك . فان اقدر عليك أثأر لنفسي ولاخواني وان تقدر عليَّ فنحن قوم لا يضرنا الضرب ولا يؤذينا الهوان . فبقيت باهتاً مما اسمع من كلام الرجل . فتركني في حيرتي وأقبل على الضابط يحادثه . فقال :

— كان البك منذ عامين يقطن داراً بجوار سفارة المانيا . وكان له ودّ مع الامير محمد باشا نجل الأمير عبد القادر باشا الجزائري . وبيتاهما يومئذٍ متجاوران . فجاءني الأمر بمراقبتهما . فكنت اقضي اكثر اوقاتي بين المقابر الكائنة امام السفارة ولكن على غير طائل . فلما اعيتني الحيل وخفت ان لا اعرف من امريهما شيئاً . تلطفت في المكر حتى تمكنت من الاستخدام في بيت الأمير . فاستبشرت خيراً . وما راعني الاَّ هذا البك داخلاً من باب الدار في اصيل يوم يتبعهُ رجل من الاجانب . فلما رآني البك انكرني . عرفت ذلك في نظره الشذر ولكنني لم ابدِ شيئاً سوى ظاهر الحرمة والتوقير . فسرت بهما حتى ادخلتهما على الأمير وخرجت فوقفت وراء الباب استرق السمع . فكان هذا البك يخاطب صاحبه الأجنبي بالفرنساوية ويترجم للأمير بالعربية . فقد غاظني والله ذلك وكادت روحي تخرج من شدة الغيظ . واني لفي غيظي واذا ثلاثتهم

يضحكون ضحكاً عالياً . تخيل الي انهم يضحكون مني . تخليت عنهم ونزلت كاسف البال والله يعلم ما كنت أقول عند نزولي

وقد أراد الرجل أن يسترسل في حديثه لولا ان قاطعته . فأقبلت على الضابط وانا أرتعد غضباً . فقلت :

— أهكذا دأبكم . تبعثون بمثل هذا الرجل الى الناس ليبالغوا في تعذيبهم وهم يحتضرون . كفى . كفى . لقد أحسن القيام بما عهد به اليهِ . أما أنا فكما ترى . أتطلب الصبر فلا اجده . لا تحرجوني فما بالقلب جهد فيحتمل

فأيقن الضابط ان الاناء قد امتلأ وعرف ان لنفوس المكربين ثورات تعيي على مخمديها . فعدل بالرجل جانباً وسمعتهُ يقول له :

— اذا لم تخرج الساعة من هنا خرجت انا وتكون انت مسئولاً عما يقع من الامر . فذهب عنا ذلك الجاسوس وكانت ساعة سفر الباخرة قد دنت. فأسرع نحوي الموكلون باخراجي من الوطن وأخذوا يودعونني وداع القالي وأوصوا بي الضابط ونزلوا . ثم صفرت الباخرة صفيرها وانبعث من جوفها زفيرها . ثم تمايلت ذات اليمين وذات الشمال . ثم دارت الى ناحية البحر الاسود فدارت دواليبها وقعقعت أضلاعها وتوالت هزاتها . فسألني صاحبي الضابط ان اصعد معهُ الى سطح الباخرة ووافق ذلك هوًى في النفس فصعدت . واذا نحن نسير بين منظرين ما تفتحت الأعين على أحسن منهما . شطي آسيا وأوروبا . يتناغيان بالمصابيح . عاشقان ضنت عليهما الاقدار بالتلاقي . مررنا بهما أم مرّا بنا . لا أعلم . صحائف أجاد الحسن فيها منمقهُ . نشرت فانطوت . زلت عنها الأبصار

وضاقت عنها الفهوم . فرائيها متخيل وعارفها متوهم . ما شك ناظر الى السماء واليها ان تلك المصابيح كواكب سقطت عليها . عهدي بها في حالتيها . بينا هي عرين اذا بها كناس . يخالط فيها كل زئير ليث عندلة عندليب . تجاور بها مسارح آرام ومصارع كرام . تسقى من ماء معين ومن دم مهراق . تطالعها وجوه ضاحكة واخرى مجهشة . تقسمتها مواسم الصبا فهي تارة مشتى وآونة مصيف وحيناً مربع . جنة يحرسها حارس جهنم . فتنتني يوم لقائها وتوشك ان تفضحني يوم فراقها . فروق ياظلوم . خذي روحي فما هبطت عليّ الاّ فيك واسترجعي من انحاء الفضاء متفرقات انفاسي . أنت أولى بحسراني منه . استبقي لي خاطراً احييك بهِ وشعراً انوح به عند فراقك . يا نعيمي الماضي وشقائي الحاضر . ألا يضطرب ماء هذا الخليج مجاراة لجوانحي . وددت لو ان ارتطم عبابهُ وترامت امواجهُ واغرقتنا قبل ان نجتاز ربوعك . كان بك مهدي . واريد ان يكون بك لحدي . هنيئاً يومئذٍ لحوتك ونونك ما ابقت الايام من لحم على وضم . ولتتصرف رياحك باخريات انفاسي ولترن في ارجائك نوحاتي . الوداع الوداع يا فروق . وسلام الله عليك وعلى بنيك كلهم . هذا طريد جديد . مظلوم يلحق بمظلومين . يخرجونني منك ليلاً لأراك في ثوب حدادك . أمن اجلي كل هذا . كلا . بل حدادك على اختك الغزالة . انا اضيع فيك من دمعة على خد مهجور . انا اهون على الدهر من ذرة من ذراتك ضلت بين ثنيات الأثير . . . . .

اجتازت بنا الباخرة مرمى (بشكطاش) . فاطلع علينا من ورائها قصر (يلديز) على هضبته . وبينا نحن ننظر اليهِ ونستعيذ بالله منهُ .

اذا مدفع قد دوى ثم تلاه غيره . فعددنا المدافع فكانت سبعة . وهذه عادة فروق اذا حدث فيها حريق . فجعلنا نطلب بابصارنا مكان النار ثم لم نلبث ان لاحت قريبة من (يلديز) وكنت اعلم ان لن تصل اليها فحولت عنها بصري وجعلت امتعهُ بما يتجدد امامه من محاسن فروق . ظللنا على تلك الحال حتى دانينا باب البحر الاسود . فوقفت عنده الباخرة وألقت مراسيها قبيل الحصون . وكنا غلب علينا الاعياء وتواكلت اقدامنا من طول الوقوف . فاشار عليَّ صاحبي بالنزول الى موضع نومنا فنزلنا جميعاً . وحين أخذنا مجلسنا للراحة اخبرني عن اسمه فاذا هو موسى كاظم بك واعلمني بوظيفته فاذا هي وظيفة ياور لناظر الضابطة ورتبته ملازم اول . وقد وجدت كلامه لا يشبه كلام رفاقه الذين تقدموا . فاستأنست به . وعرف مني ذلك فقال :

— سترى في الولايات حياة جديدة غير التي رأيتها في الاستانة . ويا ليتني كنت مكانك الآن . اقول لك ذلك لاني قضيت شطراً من عمري متنقلاً في مدن الاناضولي وما مرَّت عليَّ ساعة في تلك المواضع وشكوت منها أمراً

— كذا ينبغي ان تكون . كل موضع يبعد عن (يلديز) يقرب من النعيم

— صدقت . وسترى مني خادماً مطيعاً وخلاً وفياً ولا أسألك من الجزاء الاَّ ان تكون جلداً وان تجعل ما انت فيهِ اليوم من محنة الدهر مغنماً من التجاريب لا مغرماً باليأس

— سترى مني حمالاً لأثقال النوائب . صبوراً على فادحات الكُرَب .

غير اني سائلك عن أشياء ارجو ان تصدقني في الاجابة عنها

— سل ما بدا لك

— الى اين يكون مصيري

— الى صامسون . واخال انك ستوظف وظيفة فيها

— وما تكون وظيفتي ؟

— لا أدري

— ألا أسجن فيها اياماً ؟

— لن تسجن فيها ولا ساعة واحدة

— ويحك . ما أدلك على طرق المكر . وما أغباني ساعة أملت فيك الصدق . قم عني الى لعنة الله . لن اكلمك مذ الليلة

— سيدي . أنت رجل كثير الوسواس . ولولا غلبة الجزع على ذات نفسك ما اتهمتني من غير تجربة . شهد الله اني ما كذبتك في شيء مما اخبرتك بهِ . وسواء عليَّ صدقت ام لم تصدق . لا احاول اقناعك . ثم اعلم اني صحبت قبلك كثيراً من الرجال الى الاقطار التي نفوا اليها . فما ذمني منهم احد . وهذا اسماعيل بك صفا الشاعر التركي الشهير . صحبتهُ الى سيواس . وغيره كثير لو شئت ان آتي لك على اسمائهم لقضيت الليل في عدها

— اذن أنا لا اسجن

— نعم . وبرئت من عثمانيتي ان كنت كاذباً

— لقد قامت حجتك . ولكن متى نفي اسماعيل صفا

— منذ عامين . أتعرفهُ ؟

— نعم اعرفهُ بآثاره . وكنت مولعاً بمجلته التي سماها (معارف) . ثم عرفني بهِ أحد الفضلاء في احدى ليالي السمر . وكان حديثنا غير طويل

وقد استطال حديثي مع كاظم بك الى ما بعد نصف الليل . فعلمت منهُ انهُ ابن أخي الحاج حسن حلمي باشا والي سيواس اذ ذاك وانه نفي وسجن وذاق أمرّ طعم النوائب . وانه لولا استشفاع عمه لقامت عليهِ نوادبه . فلما اخذنا حظنا من الحديث مال كل الى مضجعه . فما انتبهنا الا على هزج الباخرة وضرب الامواج . فلم نرَ الاَّ الأسود الخضم في ازباده البيض وتحت سمائه المحتجبة وسحبها الداجية . شططنا عن المعاهد والرسوم ويممنا قصداً لا ندري متى نحن مدركوه . فقلت لكاظم بك :

— تُرى أيعلم اهل بيتي شيئاً من خبري ؟

— ذلك علمه عند الله . والقوم لا يخبرون الناس خبراً

— وما الحيلة في إخبار أهلي بأمري ليهدأ روعهم ويخف حزنهم

— ارى ان تصبر حتى تنزل بصامسون . اما الآن ونحن في عرض البحر فلا نستطيع شيئاً

هذا جواب حسن عنده سكوتي وفي النفس من برحائها ما لا ينهض به عزم . فبقينا في الباخرة خمسة أيام وما انتهينا الى صامسون الاَّ اصيل اليوم السادس . وما مرّ بنا في سفرنا هذا ما يصلح للذكر سوى ان فرغ الفحم منا حين بلغنا (اركلي) وان الربان عانى الشدائد حتى حصل من (مورّده) ما يحتاجه . ولما بلغنا حصن (سينوب) أقبل علينا من الشط زورق يقل جماعة من الشرطة يتوسطهم رجل نحيف الجسم قصير القامة اصفر اللون ذو لحية سوداء تلوح عليه سيما أهل الفجور . فسألت كاظم

بك ممن الرجل فأخبرني انه مدير التحريرات في متصرفية (صامسون) وان أباه انيس باشا والي قسطموني عدو الأحرار الفاتك بمن نفي منهم الى ولايته . وانيس باشا كان اشد ظلماً من عبد الحميد وهو الذي غذا الاسواط من لحوم المظلومين الذين وقعوا تحت حكمه حتى لقد استعظم ظلمه عبد الحميد وبعث اليه يأمره بالتخفيف فلم يمتثل امره . كرهت لقاء ذلك القادم الثقيل فتنكبت طريقه . ولكنه سأل عني فقيل له اني منفي فدنا مني وحياني . فحييته تحية كلها تكلف . وكان صاحبي كاظم بك عرف بعض طباعي فتداركنا بمحضره . ثم اشار الى الرجل وخاطبني معرّفاً :

— البك نجل صاحب السعادة انيس باشا والي قسطموني . وهو مدير تحريرات صامسون

— أهلاً بهِ

— لما سمع باسمك أسف لما أصابك

— شكراً له

فابتدرني القادم بكلامهِ . فقال :

— انما تعرف الرجال عند الشدائد . فلا تحزن لما أصابك . ان عفو سلطاننا مؤمل

— ما انا بحزين

— رأيت بقسطموني كثيراً من المنفيين . غير اني لم أحفل بأحد منهم . ما فيهم من فتى كريم . ولقد ادبهم والدي فأحسن تأديبهم . وانهم اليوم لأذل من العبيد

فما رددت على الرجل بحرف . بل رميته بنظرة ادرك منها مرادي .

فاخذ كاظم بك بذراعه وتنحى به جانباً . وقد رأيته يؤنبه على كلامه ويحذره مني . غير انه لم يلبث ان عاودني واخذ يكلمني . فأعرضت عنهُ بوجهي وتركته يهذي وحده . فذهب الى الربان يحدثهُ بما قابلتهُ به من الاعراض فقال له الربان :

— ما علمنا بهِ الاّ حسن الخلق . ولكنهُ مكروب والمكروب تضيق نفسه عن اشياء ربما اتسعت لها في ايام دعتها . فلا تؤاخذه بما رأيت منه وانا سائله الليلة عما انكره منك

وقد وفى الربان بوعده . فسألني عما انصرف بي عن مخاطبة ابن أنيس باشا . قلت :

— هو رجل اختلفت بيني و بينهُ الاهواء . ثقل على فؤادي اول ما سمعت من كلامهِ . فرأى الربان ان لا يزيدني سوآلاً . وكان ذلك آخر غرائب السفرة البحرية

صامسون

لما نزلت مع رفيقي كاظم بك الى البر استقبلنا رجال من الشرطة وغيرهم وكانوا على انتظارنا . فدوروا حولي وابعدوا عني رفيقي واستبقوني وحدي في غرفة من الخشب . فمكثت فيها مدة . ثم عاد كاظم ومعه اربعة رجال من الشرطة . فاركبنا زورقاً سار بنا حتى قارب دار المتصرفية . وانما اركبوني الزورق ولم يسيروا بي في البر مجانبة لأعين الناس . فلما دخلنا المتصرفية صعدنا الى غرفة استرحنا فيها قليلاً وجاء بعد ذلك رجل صحبني الى غرفة المتصرف وكان اسمهُ حمدي بك . فاذا رجل حسن الوجه

طلقة . قام يتلقاني تلقي الصاحب لصاحبهِ . ثم اجلسني الى جانبهِ واظهر لي من الانس والاكرام ما لم يخطر على بالي . وسألني عن سبب نفيي . فأخبرتهُ بما انتهى اليهِ علمي . فقال :

— هذه سبيل سلكها كثيرون قبلك وليسلكنها كثيرون بعدك فلا تخف ولا تحزن . انت ذاهب الى مدينة سيواس وفيها يكون مقامك ما شاء ربك . ان طريقاً تؤدي بك الى النفي لتؤدي بك الى الخلاص منهُ . وانت في شبيبتك وميدان الامل اوسع للشبان منهُ للشيوخ . فكن جلداً واجعل املك في جانب الله ثابتاً . ولو كان في طاقتي خلاصك مما انت فيه لاغنيتك عن الصبر . غير اني استطيع ان استبقيك بصامسون ثلاثة ايام الى ان يشتد عزمك وادعك حراً تسير فيها كما تريد على ان يصحبك احد رجال الشرطة حيثما توجهت

فشكرته بما هو اهله . وقلت له : اني احب التعجيل بالسفر . فدعا بكاظم بك وكبير الشرطة وامرهما ان يفرجاني على البلدة . واوصى بي كاظم بك خيراً . فخرجت من عنده متحدثاً بمكارم اخلاقهِ

فذهبنا الى احد الخانات وطلبنا الى صاحبهِ ان يعد لنا غرفة نبيت فيها . وحين خلوت الى كاظم قلت له :

— أرأيت كيف ظهر كذبك

— اي كذب ظهر لك مني

— ألم تقل لي ونحن بالباخرة اني أُنفى الى صامسون . وقد اخبرني المتصرف اني انفى الى سيواس . ما حملك بالله على ان كذبتني . وهل صامسون احبُّ اليَّ من سيواس . كلا البلدين انا فيهِ غريب

— لو عرفت منك ذلك لاخبرتك اليقين . غير اني خشيت عليك الكمد . فاخترت الكذب ولا فائدة لي فيهِ

— دع ذا . اني اريد ان اخبر اهلي بما انا صائر اليهِ

— لا سبيل الى ذلك . امرت أن لا ادعك تخط حرفاً على قرطاس وانت لا تحب ان يصيبني اذًى بورقة لا تعلم أتصل الى اهلك ام لا تصل

— صبر جميل . ان لي في اسماعيل صفا لاسوة وان لي في قربه لسلوة

ثم اننا جلنا في البلدة ليلاً . وجيء برجلين من الجندرمة ناما معنا في الغرفة . فما انزاح نقاب الليل عن وجه النهار الاَّ وقد اعدت لنا عربة كعربة النعش يسمونها (يايلى) . جعلوا لنا بها ما نحتاج من فرش وغطاء فخرجت من صامسون توءم سيواس

كتاب الى الصديق الأورفى

رفيق التلمذة

سيدي

اجلك ان يصيبك هذا القلم بسنانه . واجل هذا القلم ان يكمن في شقه الحقد او ان يثأر لي منك . لا آخذ الله من اجلي احداً . وليهنىء مبغضي ما اصابني من ضر . فهب لي من لدنك انصافاً يكون لك معواناً على قراءة كتابي هذا . لن اقاضيك الى الناس بل اقاضيك الى ذات نفسك . اما لتقضين لي عليك . حجتي عليك قائمة وما لك عليَّ من حجة انفذت فلاناً يأخذ كتاباً أنا بعثت به الى فلان . ثم جعلت ذلك

الكتاب سبباً لنفي سبعة اعوام . حتى شلت انامليّ وبح صوتي وجفت ينابيع خاطري . فهلا ذكرت ان للمظلوم رباً يسمع انينه من اعماق السجون ويرى دموعه في ظلمات الليالي

هذا يراع ملكته ولا فضل عليَّ فيه لغير الله الذي براه لانامليّ وبراني لصريره . سيرته في خدمة امة باد اكثرها بظلم الظالم وباكيته على احرار اسكنوا الأجداث ولم يمتعوا بالشباب . اكان عليَّ في ذلك بأس ام انا صنعت ما ينبغي على الحر ان يصنعه

ليتك كنت طيب الشمائل فاحبك كما اريد ان احبك . وليت اساءتك كانت وقفاً عليَّ ولم تتعدَّني الى اخواني . اذن لاتخذت منك تلك الاساءة احساناً ولأقمت على ودك ما أقامت في جسمي الحياة . لست اشنأك . فاني لا اعادي انساناً . ولكن دلني على قلب احمله محبتك واكرهه على قبولك . عفا الله عنك وتجاوز لك عن حقي . ما اريد تأنيباً ولا اطلب لك شيئاً تبغضه . فلتجد عيناك بدموع تغسل عن قلبك حب الانتقام وليهدك الله منذ اليوم حتى تداوي بآتيك ما جرحت بماضيك

كاتب المعلوم والمجهول

الحمد لله كثيراً . نفست عن فؤادي هماً واغلاً . اذا صرت اقرن الى هذه النظائر العالية فقد عفوت عفو قادر . والقدرة بيد الله . لا منٌّ ولا سرف . غير اني ما كنت احسبني أحيا الى مثل هذا اليوم

الى سيواس

أيها الركب سر فان امامي ... ليعاداً مرًّا وعيشاً أمرّا
غربة هذه وقد كنت ادري ... أن سأرمى بها لدن كنت حرا
فالفحي يا رواسي الأرض ناراً ... وافيضي فدافد الارض بحرا
وانفحي يا ريح الشمال سموماً ... واقذفي يا سوافر الافق صخرا
أنا ارضى بذا لحب بلادي ... وأرى في سبيلها الموت نقرا

ركب حثحث نجبه البين . يهوي المخارم هوي الاجدل . ويترقى الشم ترقي العقاب . تستوقفهُ الحوائل وتستطرده المسالك . ما يخلص من وحل الا يغوص في ثلج . لاخشابه صريف ولعجلاته دبيب . كذا مرَّ يومنا حتى حللنا اول منزل في مكان يقال له (چقاللي) . فيممنا احد خاناته وأوينا الى غرفة من غرفه . فنزل كاظم بك ليستحضر عشاءنا . وكان الرجلان من الجندرمة صحبانا . فرأيت على حيطان الغرفة من الكتابة ما يملأ الكتب . فقمت لأقرأها . واذا هي مكتوبة بالتركية والافرنسية والرومية وغيرها من اللغات . كل من نزل ذلك الخان كتب على حيطانه شيئاً . فكلام يستعذب وكلام يمجه الذوق وكلام يضحك وكلام يبكي . ثم وقع نظري على بيتين للشاعر الجليل اسماعيل صفا . كتبا بيده بقلم الرصاص وتحتهما توقيعهُ . فخفق فوآدي طرباً ووقفت أنشدهما وهذا معناهما : مثل هذه الدار كمثل الدار الدنيا . ينزل اليها الناس ليرحلوا عنها . ما تأخذ منهم سوى زفراتهم . ولا يأخذون منها سوى حسراتهم . غير ان الراحل عن هذه قد يعاودها اما الراحل عن تلك فلن يعاودها ابداً

ثم رأيت تحت ذينك البيتين كلاماً منثوراً وهذا معناه : ما أعدى حوادث الايام . كنا نرجي ان يعيش لنا اسماعيل صفا ليكون خير خلف لنامق كمال . ولكن قضى الدهر ان ينفى الى سيواس مظلوماً وان يوسد التراب بين تلك الجبال . ولم استطع ان أقرأ توقيع الكاتب لانهُ بالغ في ابهامه

هنا ادركني من الحزن ما لا اقدر على وصفه . أ امني النفس بلقاء فاضل تخط دونه الاشباه والنظائر وحرّ كان في حريته قرة عين الوطن . ثم يقدر لي ان اسمع أنينه من الصخر الاصم ثم ينعاه اليَّ من لم يعلم من امري شيئاً . ألا انني لعاثر الجد . كاذب الامل . ألا ان ريب المنون قد رمى فاصاب كبداً ما الى الحرية شيء أعز منها . ليت ذلك المكان أطت اركانه وتصدعت جوانبه وتساقطت عليَّ احجاره ولم أتبين على صفحاته هـذا الخبر . جادك الغيث وأنبت ثراك اطيب الزهر يا مثوى اسماعيل صفا . وليدم ذكرك على افواه العثمانيين طيباً تتعطر بهِ الافواه وتطرب بهِ الاسماع . ان لك على الادب واهله لفضلاً . وان من حقك على ابناء وطنك ان يذكروا اياديك على وطنهم . رحمة الله عليك . رحمة الله عليك

تجلدت وكيف يتجلد من شجاه مثل شجاي . غربة وفراق أهل واولاد وروعة تستطير القلوب من الصدور . وبينا أنا في تلك الحال اذا كاظم بك داخلاً من الباب وخلفهُ الجنديان . فلما رآني مستعبراً وقف امامي باهتاً لا يدري ما يقول . فتداركتهُ بالجواب قبل سؤاله واعلمتهُ ما احدث في قلبي موت اسماعيل صفا . فقال :

— ان موت اسماعيل صفا ليس بالأمر القريب . بلى انه مات منذ عامين

— ما علمت ذلك الاّ الساعة . ولكن ناشدتك الله ما يدعوك الى كتمان الصواب عن الناس . ألم يجرِ بيننا ذكر الرجل ونحن بالباخرة . فما كان ضرك لو اخبرتني بموته اذ ذاك

— ما كان يجديك علمك بموته . اكنت قادراً على ان تبعثهُ حياً ؟ دع ذكر ما يشجيك واستبق عزمك . ان امامنا لطريقاً صعباً وسفراً بعيداً

قلت في نفسي ما اخبرني هذا الرجل خبراً الاّ ظهر لي كذبه . واخشى ان يكون كذلك ما اخبرني به عن مقامي بسيواس . هو يزعم ان لن اسجن . فاذا أنا سجنت فماذا أقدر ان اخجله به . وكان الجنديان فرغا من اعداد طعامنا . فجلسنا نتعشى وأنا صامت . وكأنَّ كاظماً فطن لما أنا فيه فاختار ان يدعني وشأني . فاعجبتني منهُ فطنتهِ . وما فرغنا من الطعام والتدخين الاّ وقد اثقل النوم هاماتنا فنمنا . فما انتبهنا الاّ على اصوات المسافرين قبيل الفجر . فاخذنا اهبتنا وجاءنا جنديان غير اللذين صحبانا الى جقالي . اخذا منهما النوبة واخذنا كلنا في الطريق . وهذه اسماء المنازل التي نزلناها من لدن ان خرجنا من جقالي الى ان بلغنا سيواس . اذكرها مع طرف من تاريخ بعضها . وكنا نرحل عن المنزل الذي نبيت فيهِ قبيل الفجر ونبلغ المنزل الذي يليه اصيلاً او قبيل المغرب

(حوضة) بلدة صغيرة انيق منظرها متشاكلة بناياتها . بها حمام يستشفى بمائهِ الحار . بناه ممدوح باشا الذي كان ناظر الداخلية في اواخر ايام الاستبداد . فأجاد بناءه واحكم نظامه . ولقد دخلته واغتسلت بمائهِ .

غير اني لم أقدر على نزول حياضه لما في مياهها من الحرارة الشديدة . فانها تبلغ الدرجة الخمسين بميزان سنتيغراد

(اماسيه) هي مدينة في الشمال الغربي من سيواس . تبعد عنها خمسة وسبعين ومائة كيلومتر وفي الجنوب الغربي من صامسون . تبعد عنها اربعين ومائة كيلومتر . مكانها هو المرتفع الكائن في (° ٥ ' ٣٩ " ٤٣) من العرض الشمالي وفي (° ١٥ ' ٢٤ " ٣٣) من العرض الجنوبي . على يمين النهير المسمى (طوزانلي) بحيث يتلاقى به نهير (ترس آقان صو) . عدد اهلها خمسة وعشرون ألفاً . سبعمائة منهم من الأرمن ونحو المائة من الروم وما بقي فمن الترك

هذه مدينة آماسيا الشهيرة بفاكهتها وجودة ارضها وكثرة اطلالها ورسومها وآثارها ومعاهدها . وهي من المدن القديمة وفيها ولد (سترابون Strabon) وهو احد مشاهير الجغرافيين من قدماء اليونان . وولد بها السلطان سليم الثاني المعروف بياوز . وقد فتحها السلطان بايزيد الاول وانشأ بها جامعاً ومدرسة وجسرين على النهر . وكل ذلك باقٍ على جدته ورونقه الى يومنا هذا . وتعلم في تلك المدرسة السلطان محمد چلبي والسلطان بايزيد الثاني

وفي اماسيا مقابر بعض الامراء من بيت الملك العثماني . ودفن بها من الملوك السلاجقة (قيلج ارسلان الاول) ومن وزرائهم (معين الدين بروانه) والشيخ حمزة والد (آق شمس الدين) وغير هؤلاء

ولما كانت اماسيا لا تبعد عن حوضة الا مسيرة ست ساعات بلغناها غير متأخرين . فكان لنا في الوقت متسع لمشاهدتها والالمام ببعض

محاسنها . على انني لم اجد فيها من المناظر ما يبعث على الطرب او يهيج ساكناً في الفوآد . ذلك لاننا جئناها في اواخر كانون الثاني واشجارها مجردة من ورقها وارضها معراة من نبتها والوحل متراكم في طرقاتها . وكان متصرفها اذ ذاك العالم الكبير المرحوم كمال بك وهو غير نامق كمال بك الشهير . وكان منفياً اليها . فأحببنا زيارته ثم علمنا انه مريض . فزاره كاظم بك وحده

ومما اذهل عقلي اني رأيت نساء الارمن والروم في اماسيا متحجبات . يتهادينَ ساحبات مآزرهن كما تفعل نساء المسلمين . فايقنت ان المرأة العثمانية في تلك البلاد محرومة من نعم الدنيا . فتجددت لوعاتي وتضاعفت احزاني . وقلت ما قاله أبو الطيب المتنبي :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

ثم عاودنا الخان الذي نزلناه فاذا جماعة من كبار المدينة جاؤا لزيارة كاظم بك لانه ابن أخي الحاج حسن باشا والي سيواس . فجعلوا يتنافسون في اكرامه والتقرب اليه . وفيمن جاءنا يومئذٍ ابناء طوبجي زاده وهم فروع بيت من بيوتات الحسب الزاكي في تلك البلاد . وقد أعدوا لنا مأدبة بلغت الغاية في بهجتها واهدونا من تفاح اماسيا المشهور شيئاً كثيراً وحملونا جانباً منه هدية للوالي . فسألني كاظم بك ان انظم بيتاً من الشعر التركي اكتبه على حائط الغرفة التي بتنا بها . فأجبته الى ما اراد وقرأه اناس كثيرون ممن قدموا بعدي سيواس واخبروني به . وكان يخيل اليّ ان سأرحل الى بلاد مثل اماسيا . هيهات . اخطأت الظن وخاب المأمل فما سارت بنا العربة الاّ بين صخور وعلى حجارة لا نستجلي عندها خضرة

ولا نرد ماءً الا كما قال الشاعر :

صرى آجن يزوي له المرء وجهه اذا ذاقه الظمآن في شهر ناجر

(چنكل) هو منزلنا الرابع بعد خروجنا من صامسون . موضع تبصرت فيهِ فلم أرَ بيتاً ولا سكناً سوى الخان الذي نزلناه . وهو على سفح اكمة هناك . بئست دار المسافر تلك . قفر جرداء موحشة . لا يلم بساحتها طير ولا يبقل في مهادها نبت ولا يظلها سحاب ولا تهب عليها صبا ولا يسجع بها طير . بلغناها وقد بلغت الشمس مغربها . فلما فرغنا من الاستعداد لحاجات العشاء خرجت الى مكان بالطبقة العليا من الخان اريد ان اتمشى . وقد خلت ذلك المكان مستشرفاً . فاذا هو لا يشبه المستشرف فقلت : تظل انت يا عبد الحميد في قصر يلديز بين بنات الجركس . تقتل الامة وتضحك من عقول الناس وترمي بي في هذه الفجاج لأقيس لك جبال الاناضولي ووهادها . ألم تجد احداً أعلم مني بالمساحة . انك لقليل الخبرة بالهندسة

ثم دعاني كاظم بك الى المائدة ونفسي لا تشتهي الطعام . فجعلت آكل لا رغبة في الاكل بل ابقاء على قوة استعين بها على مواصلة الاسفار . فلما رفع من بين يدينا الطعام وملنا الى تلك المضاجع الخشنة طار نومي واعتادني أرق شديد . وما راعني الا جنود من البق تدب اليَّ من كل ناحية . بق غذي انواع الدماء حتى اتسع وانبسط وعادت كل واحدة منهُ كطابع البريد . تتبختر على الوسادة تجتر الفقيه في الجنازة . فقمت الى خوان في وسط الغرفة عليه مصباح ضئيل النور . واذا صاحبي كاظم قائم الى جانب النور . باحدى يديه قميصه وبيده الاخرى عود يحذف

به البق . قلت : مالك . يا رفيق الخير ؟ قال : دعني . ألا ترى ما أنا فيه ؟ قلت : لا عليك بأس . افسح لي مكاناً الى جانبك . قد صار القميص قميصين . ولئن دام لنا ما نرى خرجنا هائمين في جنح هذا الليل . ثم سكت كلانا واشتغل عن صاحبهِ بالتقاط الحشرات . ولبئس العقود عقود نظمناها تلك الليلة حتى آذنت برحيل . فما خفقت راية الشفق على قمة الجبل الاّ تبادرنا الى السائق نوقظه بالأيدي والأرجل . ثم نبهنا الجنديين الحارسين وخرجنا من الخان بعد ان دفعنا لصاحبهِ حقه . وما ادركتنا العربة الاّ وقد قطعنا شوطاً بعيداً وغصنا في الوحل والثلج الى الركب . وحين اعتدلت الشمس في عليائها تهاوت تلاع جنكل برؤوسها وحيل بينها وبين الشهود . وطاب بعد ذلك السفر فانطلقت بنا العربة تشتد في سيرها يومنا كله ميممة (توقاد) . فوافيناها في عتمة المساء

(توقاد) مدينة كائنة على مسيرة تسعين كيلومتراً من شمال مدينة سيواس وعلى الشاطئ الأيسر من نهر (توزانلي) . يبلغ عدد سكانها اربعين ألف نسمة . خمسة آلاف منهم من الأرمن وغيرهم من اخواننا المسيحيين . هذه المدينة جيدة التربة طيبة الهواء . عذب ماؤها جميم خصبها . تلتف حولها الحدائق المونقة والكروم الوافية وهي معروفة بكثرة فاكهتها وبقلها . منظفة الأسواق والشوارع . غير انها ليس بها من آثار السلف سوى حصن خرب فيه السجن المشهور في كتب التاريخ واسمه (جارطاق بدوي) . ويذهب اكثر المؤرخين الى ان توقاد من المدن القديمة وانها هي المدينة المسماة عند القدماء (بريسه) او (قومانة بونتيقة) وقد ذكر المستعصمي توقاد في معجمه . ولأهل هذه المدينة

مهارة في صنع الأواني النحاسية ونسج الحرير وتطريزه وبضاعتهم معروفة بالجودة

فلما نزلنا الخان واخذنا بعض الحظ من الراحة خرجت مع كاظم بك نريد زيارة المتصرف . وكان المتصرف رجلاً من خاصة الجراكسة اسمه بكير باشا . فاذا دار آهلة كل اهلها جراكسة وكلهم مقيمون على بدويتهم . فتلقونا على الرحب والسعة وادخلونا الى مجلس الباشا بلا استئذان . وكان بكير باشا يعرف كاظماً ولا يعرفني . فسماني له وقص عليه قصتي . فرفع الرجل موضعي واقبل يحادثني اطيب الحديث . ثم اخذ يقص على جماعة كانوا عنده بعض اخبار البيت اليكني الذي انا منه وهو في كل حديثه يثني اجمل الثناء . وقد قال للقوم . ايكون مثل هذ خائناً . ام يعاقب مثله بالثنى . فقال كاظم بك : ان والدة فلان جركسية ووالدة ابيه جركسية . فبسم لي وقال : أصادق صاحبك قلت نعم . قال : فأنت تركي جركسي معاً . كفانا الله شرك . واخذ يلاطفني ويمازحني كأني كنت صديقه منذ القدم . ولما هممنا بالانصراف دعانا الى مأدبة اعدها لنا . كانت كأحسن ما يستطاع في ذلك المكان . وقال لكاظم بك : لن تبرحونا غداً . انكما ضيفاي . وقد اخبرت الوالي بذلك تلغرافياً فرضي . فخرجنا شاكرين . وكنت احب ان ابلغ سيواس غير متأخر لاجد حيلة في مراسلة اهلي . غير اني كرهت ان اخالف بكير باشا فأقابل احسانه بالكفران

وفي اليوم التالي طفنا توقاد وولجنا دورها ومشينا في ازقتها ورجعنا مساء الى بيت المتصرف مع رسول كان انفذه في طلبنا . فودعناه واثنينا

على بشره واكرامه . ثم اصبحنا فتوافى الوجهاء الى الخان يودعوننا ويظهرون الاسف على فراقنا . فقلت : يا عبد الحميد تريد ذلي ويريد الله عزي . دام انفك راغماً

فخرجنا من توقاد على عادتنا مبكرين والطير في وكناتها . فجعلنا نتسنم الهضاب لا يتخلل صعودنا انبساط ولا انحدار . حتى رفع لنا شامخ ذو هضبات . متصل الذرى بالسحاب . تعالتهُ تلال من الثلج كالقطن المندف . أشم . صعب المرتقى يقصر دونه الجهد وتخلّ في ترقيهِ العزائم . تتظالع فوقه الجياد والعربات كأنها تسبح في سحاب جامد . قلت لصاحبي : ما هذا الذي نرى ؟ قال :

— هذا (جاملي بل)

— ما زدتني علماً

— وما تريد ان تعلم منهُ . شاهق من شاهقات الاناضولي توسط بين (يكي خان) وبين توقاد . وستعلم ما هو حين نطلب ذروته

— وما حاجتنا الى هذا النصب . أعندنا سعة في الوقت فنضيعها بالتوقل في هذه الجبال ؟

— ذاك ما لا بد منهُ . ففيهِ طريقنا الى (يكي خان)

وفيما نحن نتحدث اذ هبت علينا ريح صرصر نفذ بردها الى عظامنا . ثم علت في الافق غبرة حتى لخيل الينا ان ذلك الشاهق يحثو على رأسه الثلج بدلاً من التراب . فاستوقف السائق العربة ونزل عنها وراح يتأثر الطريق . فلما رجع سألناه عن الخبر . فقال : التبست المسالك ولا أدري أية أسير . فتقدم الجنديان اللذان كانا معنا بجواديهما أمام العربة

واشارا الى السائق ان يسير خلفهما . وما هي الاَّ مسافة خمسين متراً في سفح الجبل . قطعناها في كد واعياء . فما راعتنا الاَّ هزة كادت تستطير كل واحد من مكانه . فوثب صاحبي الى الارض وبقيت في العربة وحدي . فمالت الى جانب ميلة فتدحرجت بي الى حفرة هناك . وقد تعجلت بوثبة لم احسنها . فوقعت غائصاً برأسي في الثلج وبقيت رجلاي في الهواء . ولولا السائق والجنديان لمتُّ في موضعي مختنقاً . وما ادركوني الا بعد ان سففت الثلج سفاً . وحين فرغ رفاقي من انهاضي ونفض ثيابي اخذوا يعالجون العربة ليقيموها وهم لا يستطيعون ان يصنعوا شيئاً فتقدم الينا الجنديان يعرضان علينا جواديهما . فامتطى كاظم جواداً وامتطيت جواداً وسرنا نطلب ذروة الجبل . فلما انتهينا اليها رأينا خاناً واسعاً فيه جماعة من فرسان الجندرمة كانوا ينتظرون قدوم البريد وآخرين من المكاريين . فتلقونا وانزلونا في الخان وانطلق رجال منهم بالجبال وبالجياد الى الموضع الذي تركنا فيه رفاقنا . فجاؤا بهم وقد اضناهم ما كابدوا

اما أنا فقد سكرت بغير راح . حرارة الكانون بعد برد الثلج . هذا ما لا يطاق . وكان الذين في الخان يعلمون ما في ذلك من الضرر . فأجلسوني ورفيقي بعيداً عن الكانون . ثم اصبنا طعامنا واخذنا حظنا من الراحة ساعة او ساعتين واستأنفنا المسير . لم نستشعر ضنى ولا اعياء . شتان ما بين ارتفاع وانخفاض . أنبسطت لجيادنا الأرض وسهلت فقطعناها الى (يكي خان) وكأننا مشينا على الديباج . ولا انسى موقفي على ذروة (چاملي بل) . بين فسيل الارز وكأنه باقات زهر منتثرة على ملاءة بيضاء منشرة . نظرت الى ما حولي . تخيل اليَّ اني على روق

سحابة جامدة . ثم نظرت عند انحدارنا الى قرارة الوادي . فضاع رائد الطرف بين اختلافات الألوان والأشكال . الماء كالزجاج وجوانب الوادي كالطبق الصيني واخضر النبت واصفره كالنقش على ذلك الطبق . وقد برد الهواء حتى اصبح كقدح من البلور اكفئ علينا . فلما توارت عنا الشمس . تبدى لنا (يكي خان) . وهو قضاء اناف عليه جبل في شرقه . منعه مصابحة الشمس . صغير بارد ولكنه غير قبيح المنظر . فقضينا ليلتنا في حديث وسمر وتجددت فينا العزائم اذ كان منزلنا هذا آخر منازلنا الى سيواس. وقد شرد السرور النوم من الاجفان ولو نمنا لهنأنا نومنا ولاطمأنت جنوبنا . هنالك خانات نظيفة لانت مضاجعها وطابت حجراتها . فلا تقاس بالتي نزلناها من قبل

تطاول علينا الليل واشتد قائمه . فأقمنا تحت سواده نتعلل بالأماني . ثم رق اديمه وخف حندسه فبدت تباشير الصباح . فنهضنا نهضة رجل واحد ورمينا بأبصارنا جادة سيواس وانطلقنا مسرعين . وبينا نحن في بعض الطريق اذ التفت صاحبي نحوي باشاً موآنساً . فقال :

— الحمد لله على السلامة . ادركنا دار المقام . وسترى من سيواس بلداً طيباً فلن تطيب لك مبارحتها . غير اني أبغض منها كثرة اشجارها . حيثما تسر في شوارعها تلق اشجاراً صفت على جانبيها حتى اشتجرت الاغصان بالاغصان واشتبكت الاوراق بالأوراق

— وتبغض مثل هذا الشكل . يا كاظم بك . أما انك لحائر القلب لا تدري ما تحب ولا ما تبغض

— أنا لا احب الشجر الكثير . على ان في سيواس اشياء تطربني

— وما هي ؟

— ملاعبها وحاناتها

— ومن اين لها ذلك ؟

— وما تعجبك ؟ ألا تعلم انك قادم على ولاية من الولايات العثمانية الكبرى ؟ ولسوف ترى من المحاسن ما يسرك . واني لخائف عليك منها ان تستهوي لبك . فخذ لها أهبتك منذ اليوم ولا تدع قلبك مجزءا بينها

— لقد أنذرت فاعذرت . وما للشباب فيَّ بقية تنفق . ذهبت الايام بجدته ونضارته وان أنا في الحياة الا ضيف دنا أوان رحيله

والى هنا عاودنا السكوت فأخذ كل يفكر في شأنه الى ان دانينا الضيعة الحميدية المسماة (نمونه چفتلكي) وهي تبعد عن سيواس مسافة ثمانية كيلومترات . فلما رأيت باسقة الاشجار على جانبي الطريق أيقنت ان صديقي كان صادقاً في قوله . وما حاذينا مدخل الضيعة الا ألفينا عربة الوالي على انتظارنا ومعها جماعة من رجال بطانته مثل ياوره الخاص ملك افندي ومثل مأمور التلغراف الخاص . فدنوا منا وبلغونا سلام سيدهم وقدموا الينا العربة لنتحول اليها . فنزل صاحبي وآثرت البقاء مكاني اذ لم اكن على هيئة تصلح لركوب تلك العربة وسرنا ميممين سيواس . فبلغناها بعد سير استمرّ ساعة ونصفاً من الزمان

سيواس

استقبلتنا سيواس بوجه أربد . ما اجتزنا صفوف أشجارها المتكاثفة عند مدخلها الا تلقتنا أعشاشها التربة وأزقتها الموحلة . فدارت العجلات فوق مهاد تراكمت عليها الثلوج والحجارة وتخطت حفراً لكل غوصة في احداها جهاد يستنفد الساعات ويذيب الهمم . وقد عرتني هزات ليست هزات تطرب ولا هزات ثمل . انستني ما تقدم من مثلها في سفرنا كله . وكان دخولنا الى سيواس يوم الجمعة ١٤ فبراير سنة ١٩٠٢

فذهبوا بي الى مكان قالوا لي انهُ الخان . وافتقدت صاحبي فلم أجده . فامتنعت عن نزول الخان وقلت : بلغت الروح الحلقوم . لأن تقع السماء على الأرض أهون عليَّ من ان اطيعكم الى دخول السجن مرة اخرى . تكاثروا وغالبوني . لن تدخلوني حياً . فجعل القوم ينظر بعضهم في وجوه بعض ولا يفهمون ما اريد . ثم اقترب مني أحد ضباط البوليس متأدباً محتشماً وقال : ما لسيدي لا يتفضل بالنزول الى الخان ؟ قلت : ما هذا بخان . ان هذا الا سجن . قال : اذا كان هذا الخان لا يرضيك فاختر غيره ومرنا بما تريد . فنحن في خدمتك . وفيما نحن نتكلم هكذا اذ أقبل صاحب الخان واسمه (مانوق آغا) فحياني تحية تبينت فيها الصدق وعرفت من كلامه ولغته انهُ أرمني . فهدأ روعي ونزلت . وحين صعدنا الى الطبقة العليا أبصرت قوماً جلوساً يدخنون نركيلاتهم وسيكاراتهم وأمامهم كاسات القهوة والشاي . وفي صدر المكان فونوغراف يطرب

الجلوس بما يحاكي لهم من اصوات المغنين والموسيقات . ورأيت على رؤوس القوم نوعين من العمائم . واحدهما معصوب بشاش ابيض وثانيهما معصوب بشاش اسود . فسألت عن الفرق بين الشكلين . فقيل لي ان الابيض شعار المسلمين والاسود شعار الارمن .. فتذكرت ما يروى عن اتخاذ بني العباس للشعار الاسود حين أظهروا دعوتهم في اواخر الدولة الاموية ولم أدرك سر هذا الفارق الجديد

وما استقر بي الجلوس على بعض تلك المقاعد الاَّ جاءني مدير البوليس (وكان يسمى سرقوميسيراً اذ ذاك) . فتلطف في التسليم وجلس الى جانبي مرحباً ومسلماً . فلما فرغنا من مطارحة الأكاذيب قلت له :

— ما شأني اليوم عندكم ؟

— أنت معاون مكتوبجي الولاية (مساعد ثان للسكرتير)

— غير انني منفي

— وما يضرك ان تكون منفياً . وانت حر غير مسجون ولا مقيد . تذهب اية شئت على شريطة ان لا تخرج عن حدود ولايتنا

فكاد فؤادي يثب سروراً واغتباطاً . وما كان سروري ولا اغتباطي الاّ بما بلغت من حريتي . فاحببت ان اظل بمكاني من الأمل ولم اشأ اكثار الاسئلة لئلا اسمع شيئاً جديداً يذهب بحلاوة ذاك الامل . وبينا انا احادث زائري واذا رسول من عند الوالي يدعوني الى داره . فكبر عليّ الامر واخجلني ما كنت مرتدياً من الملابس التي التبست طرائقها وغابت الوانها . فاعتذرت واظهرت التعب . ولكن اقبل عليّ مدير البوليس يستنشط نفسي الى الذهاب واخذ يثني على الوالي ثناءً جميلاً ويبين لي

ان عدم الاجابة يحدث بيني و بينه شراً عظيماً . فقمت مع الرسول متثاقلاً وما زلت اطوف تلك الاسواق الموحلة والناس يرمونني بأبصارهم حتى جئنا دار الوالي . فدخلناها واقبل الخدام يريدون ان ينزعوا حذائي ويقدموا لي نعلين لينتين مكانهما . فاجبت كارهاً . فلما رأوا جوربي ممزقين وقد تبدت منهما اصابع قدمي رثوا لحالي ودعوا على من رماني تلك الرمية . ثم أدخلت مكان الاستقبال وبقيت به حتى اعدت المائدة . فلما تقدمت اليها رأيت صاحبي كاظم بك ينتظرني . فجلس كلانا وجلس معنا جماعة من المستخدمين واخبرنا ان الوالي في بيته الآخر مع حرمه الصغرى وانه يريد ان يواجهنا بعد العشاء . وحين آن اوان الزيارة خرجنا و بين ايدينا الخدم بالانوار . ندع طريقاً ونأخذ في غيرها الى ان بلغنا البيت . فصعد بنا الخدم الى مجلس الوالي . فأقمنا في انتظاره . ولم يلبث ان اقبل علينا في ملابسه البيتية على عادة اهل الشرق . فتقدمت مسلماً . فعرفني بفراسته ثم التفت الى كاظم بك وقال :

— أظنهُ ضيفنا فلاناً

— نعم . هو ذاك

ثم أمرنا بالجلوس ومدَّ الينا علبته بسيكاراته . فتناولت واحدة واخذت ادخنها ساكتاً انتظر ان يبدأ بالكلام . واذا به مطرق . مفكر لا يكلمنا ولا ينظر الينا . وقد بدت على وجهه آثار الكآبة حتى لمحها كاظم ولمحتها . ثم رفع رأسه بعد استغراقتهِ وأقبل يسألني عن سبب نفيي . ولما كان شرح القصة يحتاج زماناً طويلاً ويجدد شجناً كاد يتقادم لم أرَ بداً من اظهار التجاهل . فهز الرجل رأسه وقال : فاتلهم الله . وهل يقاس مثلك بمن

ينفونهم الى هذه الاقطار . ولكن لا ضير . لكل كارثة لطف من الله يدرأوها . فاصبر وامتثل حكم ربك ما بعد الشدة الاّ الرخاء . واعلم بني انك نازل بلداً اهله اهل دعة وسلام وايقن انني لست والياً عليك وانما أنا ابوك . فشاورني في امورك وافزع الى الله ثم اليّ عند مخاوفك . ولا تكثر مخالطة السفهاء من هؤلاء المنفيين الذين ستجدهم في هذا البلد . وجانب فلاناً انه خدين الكأس . لا يعرف غيرها . وهو سيء التربية . لا يحبه أحد من الناس . فوعدته طاعة وامتثالاً وخرجت من عنده راجعاً الى الخان

فلما كان الغد بكر اليّ رسول الوالي . فتوجهت الى داره الأولى واذا امين الصندوق واقف في انتظاري . فتقدم اليّ بورقة في يمناه ودراهم في يسراه وقال : ضع توقيعك على هذا الصك واقبض هذه الدراهم . لقد اتصل بدولة الباشا انك خالي اليد . ولكن كتب الينا من الاستانة بتوظيفك معاوناً للمكتوبجي ولم يسموا لنا مبلغ مرتبك . فرأى الوالي ان يصرف اليك سبعمائة قرش تنفقها في بعض حاجاتك الى ان يسمى مرتبك في الاستانة . فوقعت للرجل على الصك وقبضت المال . وحين واجهت الوالي امرني أن ابعث رسالة برقية الى أهلي ليعلموا مكاني . فكتبت الرسالة واتيت اليهم في غداة اليوم الثاني . واطمأنت بذا قلوبهم وعرفوا ما آل اليه امري . وكنت اوصيت الخياط أن يصنع لي ملابس جديدة فصنع ولبستها واصلحت من هيأتي ما امكن لي اصلاحه . فلما تهيأ لي بعض ما اردت خرجت اريد دار الحكومة . فذهب بي الشرطة الى غرفة السرقوميسير . فتلقاني الرجل تلقي الصاحب ونهض معي حتى ادخلني

على المكتوبجي وقدمني اليهِ . واذا رجل محبوب الطلعة باسم الوجه نحيف الجسم ذو لحية سوادها غالب على صفرتها . فأحسن قبولي وبذل لي المودة وأبدى لي جانب الانس والود . وبعد الاكتفاء بالحديث والتسليم قادني الى غرفة الوالي وقدمني اليهِ على الطريقة الرسمية . وكان الى جانب الوالي في غرفته رجل أسمر اللون أبيض الشار بين محبوب الوجه . استخبرت عنهُ فقيل لي انهُ ارستيدي باشا معاون الوالي (هو بك اذ ذاك)

فعدنا الى غرفة المكتوبجي بعد مجلس لم يطل الا دقائق معدودة ولحق بنا معاون الوالي . فتم التعارف بيننا على أحسن منوال . هذه حالات توالت فيما دون الثلاثة أيام خلت بعد وصولي الى سيواس . أتت ومضت ولا أدري ما هي . غير اني لا أجحدها فضلها . فقد كان لها شأن يذكر في تخفيف لوعاتي . وانما سرني ان قيض الله لي مثل هؤلاء المتحببين . افرج بهم غماء الهموم . ولو ألقت بي المشيئة بين اناس من غلاظ القلوب وجفاة الطباع لطال شقائي . ولقد يتخلل ايام الشدائد اوقات تكاد تنسي المرء ما يتجرعهُ من غصصها . وما ذاك الا انصاف في الدهر يتغلب عليهِ احياناً . ولما هممت بالخروج من عند المكتوبجي سألني ان اعاوده الى غرفته قبيل المساء اجابة الى مأدبة أعدها لي في بيته . فأجبت شاكراً وخرجت

ما امسيت يومنا ذاك الاَّ وانا في بيت المكتوبجي . فأراني ابنه سليماً وبنته سوزان وهما كحمامي ايكة تدل نظراتهما على ذكاء موفر وتهذيب مستمر . ثم جاء ارستيدي باشا معاون الوالي . فكنا ثلاثة على مائدة واحدة . وكنت كلما زدت محادثة للرجلين زدت محبة لهما وأنساً بهما

وقد أظهرا من الودّ مثل ما استشعر به فؤادي

وبينا نحن في مجلسنا وسمرنا اذا برجل له حدبة بين كتفيه كسنام البعير. تحمل رقبته رأساً كالليمونة اليابسة ركب فيها وجه كالجذع المنقلب. كله ختل بادٍ وشر كامن. قلت من هذا؟ فقيل هذا ترجمان الولاية واسمه المسيو عمانوئيل برويستاكي. ومما زدت به علماً من صفات الرجل انه شديد الساعد مدمن للرياضة الجسمية كثير العجب بها وان الرجل كريدي الأصل وانه من ارذل الجواسيس. قلت ابعده به. ولكن ماذا اخاف من تجسسه وانا رجل منفي مقصي. فجاء هذا الزائر غير المحبوب حتي جلس الى جانبي. غير اننا لم نلبث ان عرف كل ما سيكون له عند صاحبه. وقد سهرنا تلك الليلة سهراً طويلاً قضيناه في حديث طيب وانس قريب ثم تودعنا وخرج كل يريد منزله

وفاة الحاج حسن حلمي باشا

والي سيواس

انتبهت مبكراً غداة دعوة اسعد بك المكتوبجي. فما راعني الا أغوب خادم الاوتيل داخلاً غرفتي على غير عادته. قلت: ما وراءك؟ قال مات الوالي. فبقيت واجماً باهتاً. لأن الرجل أمسى وليس به ما يشكيه. فزدت الخادم استيضاحاً. فأخبرني انه مات بالسكتة القلبية. قلت هذا رجل حمدت لقاءه ولم أعلم له سيرة تكسبهُ الحمد او الذم سوى ما كان يثني به عليهِ مقربوه وليس ذلك دليلاً. فان كان رجلاً أفاد الأمة خيراً

فوآسفاه على فقده وان كان امتحن جانبها بشره فالحمد لله على خلاصها منهُ . وليعوضها الله رجلاً ينهض بجناحها الكسير ويهبها من الانصاف والرأفة حاجتها

ثم أسرعت الى ثيابي فلبستها وخرجت اريد دار الوالي . فرأيت على بابها جماعات المساكين والمشايخ وغيرهم . كل فئة قائمة في انتظار ما يعنيها . فدخلت الدار واذا الناس كلهم متوافون متكاملون . وما دنا الظهر الاَّ وخرجت الجنازة باحتفال لا يستحق الذكر . فشيعنا الفقيد حتى واريناه رمسه ورجعنا ونحن لا نتحدث الاَّ بحديث وفاته . فقص علينا الخبر من حضرها . قال انه فرغ من عشائه وجلس الى حرمه الصغرى يحادثها . ولما حان وقت نومه استلقى على مقعد هناك وسألها ان تبادر الى الخدم بطلب الطبيب . غير ان المنية سبقت ومات الرجل قبل ان يحضر

ولما كان المساء توجهت الى المأتم فجلست فيه ما استطعت ثم خرجت مع المكتوبجي وجماعة من الموظفين . فجعل بعض الحاضرين يذكرون من مساوئ الرجل ما لا يصبر حليم على سماعهِ . قلت : قد آن للكتاب المطوي ان ينشر

ثم أقبل على سيواس بكير باشا متصرف توقاد . فجعل وكيلاً للولاية وكثرت يومئذٍ الاقوال والظنون . فذهب اناس الى انه سيخلف الوالي المتوفى وزعم آخرون ان سيخلفهُ غيره . وتوالت الولائم والمأدبات احتفالاً ببكير باشا . فلم يبقَ في سيواس وجيه الاّ استقبله بدعوة الى بيته . وكنت أنا معه كالظل لا يتركني أفارقه الاّ بعد نصف الليل عند انصراف سائر رفقتهِ . وما يسفر الصباح الاّ تتسابق اليَّ رسله

ولقد لمحني يوماً مفكراً فالتفت اليَّ مزدجراً وقال لي والناس يسمعون:

— اي بني . لا تحمل نفسك هماً . انتظر حتى يقضي الله في امري بما يريد . فاذا أنا وليت سيواس احتلت لك في السعادة . فاما اخلصك من هذا النفي واما افتح في وجهك طريق الهرب الى مصر . فثقل كلامه على سمعي واوجست منهُ خيفة . ثم قدر الله ان ولي سيواس الرجل الشهم والعثماني الحر رشيد باشا عاكف ابن المرحوم عاكف باشا الشهير . فانتقضت آمال بكير وأقام يرتقب ان ينصب والياً على ولاية اخرى

وقد كثر المطالبون لحسن باشا بعد موته وتعدد المشتكون . فأبى بكير باشا ان يأذن لأهل الرجل بالسفر قبل ان يقضى دينه . وجاءت تركته بما لا يذكر من المال وظهرت في خزينة الحكومة وغيرها فضائح تداركها من عنى بها يومئذٍ . فعلمت ان هذا الوالي لم يرحم في استجلاب الكسب صغيراً ولم يوقر كبيراً . وقد بلغ من الجشع مبلغاً لم تقدر عليه وحوش الفلاة ولا نسورها

زعموا انه اشترى من بعض الفقراء قنطارين من البصل . فلما ذهب البائع الى الوكيل مقتضياً أخذ يماطله اياماً حتى عيل صبره . فلزم الغريم البائس باب الباشا الى ساعة خروجه . فتقدم نحوه ولثم طرف ثوبه ووقف خاشعاً خاضعاً يستعديه على وكيله ويطلب عطفه ورحمته . فتغير وجه الباشا واشار الى الرجل بعصاه قائلاً : ألا تستحي . ايها الرجل . ان تطالب واليك بثمن قنطارين من البصل ؟ امضِ لشأنك وتعلم التربية . ثم التفت الى من حضر من صحبه وقال : لى الله . ماذا اعاني من تقويم هذه الطباع وهي تأبى ان تقوم . وخرج بائع البصل مخزياً ومنكسراً . فاذا صحت هذه

المزاعم وما خالها الاّ صحيحة فالرجل ساقط المروءة . بعيد عن مواضع الشرف . لا يمنعني عن الشهادة له بذلك ما سبق اليَّ من تودده واكرامه . ان الخائنين يستدرجون بالمظلومين حتى يبلغوا بهم غايات التلف . ولا ثقة بود مفاجئ من غير وفي . اكثر العوادي يستنيم للفريسة وفي لهواتها دماء فريسات مضت وبين انيابها الحتف الكامن

ومما علمت من ماضي هذا الرجل انه كان والياً على الحجاز وان أهل البدو سطوا علي قناصل بعض الدول في جدة وقتلوهم وكان ذلك في ايام ولايته في نحو سنة ١٨٩٤ على ما اظن . وكانت تلك الدول وفي طليعتها الدولة البريطانية ارسلت يومئذٍ سفنها الحربية وطلبت محاكمة الباشا . ولكنه وجد سبيلاً الى الفرار فقر الى الاستانة . غير ان الحكومة العثمانية لم تجد بداً من محاكمته في مجلس خاص . فقامت عليه البينة وحكم عليه بان لا يستخدم في الحكومة ما دام حياً . ثم فرغ الى الرشوة فاستعملها فعين والياً على سيواس . وكان يأمل ان يصير ناظراً للداخلية اذا سقطت الوزارة واستغنى عبد الحميد عن ناظر الداخلية ممدوح وشيعته

زفرة من زفراتي

فؤاد دأبه الذكر وعين ملؤها عبر
ونفس في شبيبتها وجسم مسهُ الكبر
وآمـــال مضيعة ووقت كله هدر
وعيش عذبه مضض وعمر صفوه كدر
أما ياليل من صبح لمن سهروا فينتظروا

جفون الناس هاجمة وجفني ضافه السهر
اذا سور تولت منك م عني اقبلت سور
افانيهـــا فتفنيني واطويهـــا فتنتشر
وحيداً فيك ذا حذر يكاد يخونني الحذر
فلا كتب اسامرها اذا ما شاقني السمر
ولا نظـــم ولا نثر وقد نظموا وقد نثروا
سأقضي العمر في اسر ويسعد بعد من اسروا
ارى سيواس تغمدني كأني صارم ذكر
صدأت بها واحسبني سأصدأ ما جرى العمر
أيخذلني واخـــواني وينصر خصمنا القدر
فوا لهفي على سرب تولى رعيه النمر
غدا في ارض مسغبة جفاها النبت والشجر
قضى راعيه مذ زمن وضلت بعده العفر

* * *

يقول احبتي صبرا وهل في النار يصطبر
عداة الحق قد ربحوا واهل الحق قد خسروا
ونحن امامنا وطن نراه اليوم يحتضر
فمن يجزع فمعذور ولكن قلّ من عذروا
فيا افق النهب حزناً وجد بالدمع يا مطر

* * *

علام نلوم اعداء على شر اذا قدروا

بلونام لدن شبوا أننساهم اذا كبروا
نصحناهم فما انتصحوا زجرناهم فما ازدجروا
لقد صلدت قلوبهم كأن قلوبهم حجر

* * *

اذا ائتمروا على كيد فانا سوف نأتمر
فمن نخشى وفوق الـ ـعرش مهما يغترر يشر
وفي الأيام متسع وفي الاقدار مدخر
وفي الاحداث معتبر لو ان الناس تعتبر
وهذا التاج منغفر غداً والقصر مندثر
رويداً انها دول تدول وبعدها أخر
يظل الحق منهزما زماناً ثم ينتصر
سيوف الله ان سلت فلا تبقي ولا تذر

ما كابده أهل بيتي في فروق

جاءت والدتي وامرأتي لتزورانني في السجن على جاري عادتهما . وكانت المرأتان لا تأملان ان يؤذن لهما في الوصول اليّ . ولكنهما قالتا نحتال في الأمر عسى ان نهتدي الى حيلة ننال بها طلبتنا واذا نفدت الحيل وسدت المسالك كلها فان فيما نستخبر عن حال الرجل وصحته لمقنعاً لنا . وانما وصلت السيدتان ساعة ارادت المتصرفية حملي الى الباخرة . نخشي رجال الشرطة ان يحدث من ذلك أمر يستلفت أنظار الناس . فرأوا اخراجي في غفوة من أهل بيتي . فتقدم رئيس القوميسيرية الى

السيدتين قائلاً : انتظرا المتصرف . ويوشك ان يحضر الساعة . اني لأرجو ان يأذن لكما اليوم في زيارة رجلكما . ثم رأى الخادمة حاملة ولدي البكر . فقال لها : لا تقفي في هذا المكان . اني اخاف ان يبكي الصبي فيسمع أبوه بكاءه و يعتريه حزن شديد . فذهبت الخادمة مع السيدتين الى مكان ينتظرنَ فيه قدوم المتصرف و بقين هنالك الى ان اخرجوني من سجني واركبوني العربة . وجاءت امرأة من قيمات السجن تخبر والدتي وامرأتي اني لست هناك وان الشرطة نقلتني الى باب الضبطية . فلا يسألنَّ قارئ كتابي عن حال النسوة الثلاثة حين فاجأهم هذا الخبر . وقفن واجمات حائرات لا يدرين ماذا يصنعنَ

و بينا هنّ على تلك الحال من الخبال اذا احد الشرطة يتقدم نحوهنّ متخوفاً حذراً . فلما قارب مكانهنّ قال :

— ايتها السيدات . لا تضيعن وقتكنَّ هدراً . بادرن الى نظارة الضبطية عسى ان تستطلعنَ خبراً او تهتدين الى طريق . ثم ابصر الشرطي رفاقاً له قادمين نحوه فاختلط بهم وانصرف عن السيدات . فلما يئسن من رحمة تتداركهنَّ خرجنَ متوجهات الى الضبطية و بقين هنالك الى المغرب . ثم تكرم احد ملوك الارض فسألهنّ عما يلتمسن فلما أخبرنه ذهب عنهنّ وغاب ساعة ثم جاء يحمل دفتراً . فقرأ لهنَّ اسماء كثيرة وليس بينهنَّ اسمي وقال : هو لا يأتي الينا وابى ان يخبرهنّ بأكثر من ذلك . فلم يبق تدبير يحكم ولا أمل يرتقب و رجعت السيدات رجوع اليأس والحسرة

ولقد يخلق الله نفوساً تحب الخير وتستطيب مكارم الاخلاق .

وتعصف بها في هذه الحيـاة عواصف حتى ترمي بها في مهاوي الشقاء حيث تزدحم نفوس تعودت الشر فتبلى بتلك الصحبة الدنسة ثم تفسد جواهرها وينطفئ نورها . وهذه القرارات النارية هي بيوت الظلم التي ندعوها منازل الشرطة ودور الحكومات المستبدة . ومن كتب عليه النحس في الأزل بمخالطة هاته المواضع عرف كيف يكون الشقاء

اقامت والدتي وامرأتي خمسة عشر يوماً وهما لا تعرفان اين انا . كلما ولجتا باب كبير من الكبراء زعر منهما اهله وحاشيته . لم تجد المرأتان في عاصمة الملك ذا جاه من الرجال يحبوهما نصحاً او يعينهما على صبر سوى وفاء من بعض انصار الحرية اعلنوه بزياراتهم ومشاركتهم لهما في احزانهم . وكم من ذي رأي يومئذٍ بان الخطل في رأيه . قالوا : استعطفا السلطان . وهل يستعطف الذئب على فريسته ؟ قالوا قبلا الأيدي والاقدام . وهل مثل اهلي يشترون دمي بشرفي ؟ لقد اغناهما الله بالصبر ووهبهما الحكمة فامتثلتا امره واستنجدتا العبرات . وما أنا بعاتب على مقصر في نصرة ولا متحول عن ود . ان مواطن الهلكات لا تثبت فيها كل القلوب . ولولا اقتضاء الوصف لما كان للقارئ نظر في هذه السطور السود . اصف حال الجواسيس . بئست الخليقة تشاركنـا في الحياة ولا تشاركنا في الاستشعار . اخذوا بطرفي الطريق وترصدوا باب الدار وتراؤا للزائرين في وجوه كأنها الحجارة . بردت فيها حرارة الحياة . فلا تحمر ولا تصفر بل تبقى غبراً كالحةً لو ضربتها بصوانة لارتدت عنها الصوانة

وددت ان اصف بعض ما كابده أهل بيتي من الشدائد . ولكني لا أجرأ على ذلك . هذا أسف اخاف ان استعيد ذكره . اقر بالجبن عنده

وما جبنت عند خطر قبله . لقد باتت امرأتي وهي لا تجسر ان ترضع بنتنا . تغير لبنها ومجته الرضيعة . فكانت لنا جارة من سيدات الأرمن تأتي ليلاً فترضع الشقية بنت الشقي خلسةً ثم تعود . وكانت الباعة تجانب البيت حذراً . ولم يبقَ محب على عهوده سوى من ذكرت في الفصول المتقدمة وسوى الصديق الشهم حسن فؤاد باشا الجندي الحر الباسل ناظر الدروس في المدرسة الحربيـة العثمانية وكذلك اهل بيته . غير انه لم يلبث ان اصابه بعد ذلك ما اصابني . فنفي الى رودس وظل بها الى أن اعلن الدستور

ولما انفذت رسالتي البرقية الى أهل بيتي اطمأنت قلوبهم وعاودتهم عقولهم فأخذوا اهبتهم وبادروا نحوي مسرعين . وكان بكير باشا لم يبرح سيواس . فاذن لي في استقبالهم واصحبني بجندي ليكون في خدمتي . فلما رأيت والدتي وامرأتي انكرتهما لما بدا عليهما من التغير والشحوب . ثم رجعت معهما وبين يديّ ابني وبنتي اخفف بهما آلام الغربة . وكان هذا اللقاء معواناً لي على احتمال النفي سبعة اعوام ولولا ذلك لم استطع تجلداً

قدوم رشيد عاكف والياً على سيواس

لما التقيت بأهلي واستصحبتهم الى سيواس ادللت على منزل للسكن فنزلناه . بئس منزل الساكن ذاك . غرفتان في الطبقة العليا وغرفة في الطبقة السفلى . وفي جوف ذلك البناء ظلام وهواء كله بلل . كالكهف بل احسن منه الكهف . فما ولجنا الدار الاّ انقبضت صدورنا . غير اننا وطنا النفوس على الصبر وقلنا : ما نحن بخالدين فيها . وعزمنا على ان نبدل عنها بخير منها حين تستقيم الحال ونعلم مصيرنا . فامسينا وآن لنا ان نأوي الى

المضاجع . فوقفت الى جانب كوة تطل على الطريق وقد خلت من كل عابر . فاستشعرت وجعاً في اسناني بدأ خفيفاً ثم اشتد حتى كدت اجن به جنوناً . قلت : وهـذا هم جديد . كأن ما كابدناه لم يكن كافياً فزادنا المرض لتتم المصائب . فاخذت قليلاً من الكونياك وجعلت اتمضمض به تسكيناً لوجعي . فما زادنا الا شراً . وبقيت ليلتي تلك واقفاً او ماشياً أو قاعداً او مضطجعاً الى ان اصبحت . فبادرت الى اجزاخانة تحت المنزل اسأل صاحبها دواء يسكن وجعي . فأخذ يجرب عقاقيره في غير طائل . فلما تجاوزت الشدة ذرع الصبر طلبت اليه ان يعطيني مقداراً من المورفين وحقنة احقنه بها تحت اللثة . فامتنع اولاً ثم اجابني راضياً . فحقنت الدواء وسكن الوجع واستلقيت سكران لا أحسن الكلام

هذه سكرة ما تجشمت لها سرىً ولا طرقت من اجلها حانة ولا اجلت في طلابها كأساً . انت عفواً حين اشتدت الحاجة اليهـا . وانها لسكرة مات بحسرتها شيخ المعرة اذ قال :

تمنيت ان الخمر حلت لنشوة تجهلني كيف اطمأنت بي الحال
فاذهل اني بالعراق على شفا رزيء الأماني لا انيس ولا مال

اضطجعت في ناحية من الغرفة واقمت استسمع شكوى من قعدوا حولي . السيدتان في نحيب والطفلان في بكاء ولدينا زنجية كانت تشبثت بالسيدتين ان لا تدعاها . وهي امرأة مثل زجاجة الحبر أخذت تتهددني بالقهوة . واني لساكت ساكن . تقع تلك الأصوات على اذنيّ وكأنها تأتيني من جوف بئر . اسمعها ولا افهمها . وكنت اود ان لا افهمها . فتأمل صحبي في وجهي فرأوا في الخد الأيسر ورماً يتزايد على توالي الساعات .

وما دنا المساء الاّ وأنا ذو وجهين . اشهد الله ما كنت كذلك فيما سلف من عمري . فلما تكامل الليل خف فعل المورفين واعتادني الوجع . فبادرته بحقنة ازالته وأنامتني . وبقيت كذلك اياماً احمل على ايسر وجهي وجهاً ثانياً هو اكبر من الاصلي . حتى اذا كنا في بعض الأيام سمعنا اصوات الموسيقات وضجات العربات وضوضاء السوقة . فاطللنا من الكوى واذا جموع تتلوها جموع يؤمون دار الحكومة . ودار الحكومة قريبة من كهفنا نراها كل يوم ونتبين داخلها وخارجها . فانفذت آغوب الذي يخدمني في الخان وكنت استخدمتهُ عندي . فذهب ثم جاء يخبرنا ان الوالي الجديد قد حضر وان الفرمان السلطاني قرئ وان الوالي خطب الناس خطبة وعد فيها بالمساواة والعدل وان الناس مستبشرون به . قلت اهلاً به ان كان عادلاً وابعد به ان كان ظالماً . فكان وصول رشيد عاكف باشا الوالي الجديد الى سيواس بعد وصولي بشهرين على ما اذكره

فمكث هذا الأمير أياماً لا نسمع عنه بشيء جديد . وكنا نراه في بعض الأحايين يمر بباب دارنا ومعهُ اركان الولاية وخواصها . فاعجبنا ظاهر هيأته . فقد دلت على ادب غض ونفس ابية . أما ما انطوت عليه طويته فتلك مالا تكشفه الظنون ولا تصدق فيه النظرات

واني لعلى ما وصفت من السقم والسأم واذا رسول من ارستيدي باشا معاون الوالي يتعجل مصيري اليه . فاعتذرت بما أنا فيه من المرض والوهن . فقال : هو يعلم كل ما ذكرت ولابد من ذهابك معي ولو كلفك ذلك عناءً ومجهوداً . فلبست ثيابي وانطلقت مع الرجل حتى دخلت على المعاون . فلما رآني بسم اليّ واحسن لقائي . ثم اخبرني ان الوالي حدث

بحديثي . فساءه ان لم يرني وتمنى ان لو عرفني . وقال لي ادخل الآن عليه وارجع اليّ اذا خرجت من عنده . فاستأذن لي الحجاب فجاء الاذن فدخلت . فتلقاني الرجل بصدر رحب وانس قريب وود محض لا يشوبه رياء واجلسني قريباً منه . ثم اقبل عليّ يحادثني فقال :

— عز عليّ . يا فلان . ان أراك في حال تسوؤك . وقد اتاني عليك ثناء طيب ممن عرفوك هنا على قرب عهدك بهم وبلغت انك من بيت يكن . فنعم الحسب . أنا لا اعرف من بيتك أحداً ولكنني أجله وأحبه على الغيب . فهل لك ان تخبرني عما دعا القوم الى نفيك ؟

— هذا . يا سيدي . سر غامض لا علم لي به . بلاء دهمني ولم أكن له متوقعاً

— كلامك لا ينقع غلة المستخبر . لا تسيء بي الظن ان كنت لا تستطيع ان تحسنه . وما سألتك الاّ لأنظر في أمرك . عسى ان أجد سبيلاً الى خلاصك وارجاعك الى ما كنت فيهِ

— ما كتمت سيدي شيئاً مما علمت . لقد دهاني خطب عرفت ورده ولم اعرف صدره

— اذن فالصبر بك أولى . واذا أنست في جانبي ثقة واطمأنت اليّ نفسك فاطلبني تجدني عند أملك . واني لموصيك وصاة ارجو ان لا تغفل عنها . اياك والخوض في السياسة عند قوم لا تعلم حقيقتهم . ان في البلدة جواسيس رزقهم من هفوات المظلومين . لا أدري من هم اولئك السفلة . ولكنني سأحتال في معرفتهم وسأتدبر في ابعادهم من هذه الارض . واعلم انك اذا وشى بك أي واش اثمرت وشايته . وما بعد النفي

الاَّ السجن والاَّ الأغلال والاالموت . فاحذر ان تفجع بك محبيك وان تروع قلوب اهلك بمصرعك

فشكرت الأمير على هذا الكلام الذي ما أملت ان اسمعه من أحد في مثل ذلك العهد واستأذنت في الانصراف . فاذن لي . وحين ودعته بسم في وجهي وقال :

بلغني ان السيدة الوالدة معك . فقبل عني يدهـا ولترضني ولداً لها . فاعدت الشكر وخرجت من عنده متوجهاً الى غرفة معاون الوالي . فأجلسني وسألني عما جرى بين الوالي وبيني من الحديث . فاخبرته . فسر حتى بدا السرور على وجههِ وقال لي : اذا صدقت الفراسة فقد رزقنـا خير والٍ . وكيف بك لو رأيت اعماله في الحكومة . اما لقد ملأ القلوب والعيون . أمس استدعى بعض المعممين من الموظفين فلما مثلوا بين يديه . خاطبهم وكأنه خطبهم فقال :

— دار الحكومة ليست تكية ولا مسجداً . فما هذه العمائم التي على رؤوسكم . لا انتم كالمشايخ ولا أنتم مثلنا . اثياب اوربية تعلوها عمائم ! ! هذا ما لا يكون . اما ان تستبدلوا العمائم بالطرابيش واما ان تستقيلوا . اني لا طاقة لي بمصاحبة اناس من الساقطين بين الجديد والقديم . غداً استدعيكم وأرجو ان لا أرى فيكم من يكرهني على ان أقسو عليه

قال ارستيدي باشا : فانصرف القوم وما جاؤا دار الحكومة غداً الا وعلى رؤوسهم الطرابيش . ثم ضرب الوالي ميعاداً لحضور الموظفين وتوعد كل من يتأخر منهم عن ذلك الميعاد بالعزل . فما رأينـا بعد ذلك موظفاً يأتي متأخراً

قلت — يا سيدي . هذا شيء تنشرح له الصدور . فعسى ان تدوم هذه الحال وان لا يتغير لنا الرجل . فقد رأيت الناس يسرع اليهم التغير . فيصبح العادل ظالماً وينقلب المحسن مسيئاً

— ليس في الوجود محال . على ان طباع الرجل ثابتة ظاهر ثباتها . وكل اقواله وأعماله تدل على نفس حرة وشيم موروث . وما زلنا في مثل حديثنا حتى آن اوان الانصراف من الحكومة . فودعت المعاون وخرجت معاوداً بيتي . فدخلته وقد هاجت عليَّ اوجاعي وعاودني قلقي . فعمدت الى عدتي التي اسطو بها وهي حقنة المورفين . فشككت موضع الألم فسكن وسكنت وعاودني ما كنت فيه من الاستغراق . تلك حياة جديدة استفتحت بابها في سيواس ولكنها لم تطل كثيراً . فقد اتصل خبري بالوالي وارسل الى الاجزاخانات ينهاها ان تبيعني المورفين . وكان ما عندي منهُ قد نفد فامتنعت ان تبيعني شيئاً منه ولم يغنِ عني رجاء ولا اغراء بمال . فلما عاودت المنزل عمدت الى سلك من الصلب لففته على احدى ثناياي وما زلت اجذبها حتى اقتلعتها من اصلها واقتلعت معها قطعة من عظم الفك الأعلى . وقضيت ليالي ما احسبها مرت على غيري . ثم عملت عملية جراحية . فلم تنجح بل ضاعفت آلامي وزادتني وجداً على وجد

كنت دعوت طبيب الاسنان وسألته ان يتولى تلك العملية . فأخرج من جيبه سكينة مطواة غطاها الصدأ حتى لا يتبين الناظر نصلها . فتناولتها بيدي وشممتها فاذا بها رائحة الخيار . فنظرت في وجه الرجل وقلت :

— ألم تختر موضعاً تصنع فيه السلطة الأَ بين فكي . فمسحها الرجل على سرواله وقال :

— هي نظيفة

— لا والله . لن ادعك تمس فمي او تدعني اطهر هذه السكين

— شأنك وما تريد

فاستحضرت قليلاً من الكحول اضرمت جانباً منه احرقت بهُ النصل ثم غسلتهُ بما بقي وامرت الرجل ان يغسل يديه امامي ففعل . ثم اسلمتهُ فكي وجلست بين يديه . فأسند رأسي على ركبتيهِ وخط على اللثة العليا بسكينهِ خطاً استشعرت به وهي تحفر في عظامي . فوثبت واقفاً دامي الثغر لا تحماني قدماي . واشرت الى الطبيب قائلاً : قم عني . لا عدت لي بعدها . فخرج من عندي الرجل متعثراً . ورأيت بعد ذلك ان انتقل من الدار التي كانت مأوى أحزاني . فاكتريت بيتاً رحباً خالص الهواء حسن المنظر وتحولت مع أهلي اليهِ . وهنالك جاءني ترجمان الولاية من قبل الوالي يخبرني بان قد جعل مرتبي خمسة عشر جنيهاً عثمانياً في الشهر . قلت : لاضير سنصبر كرهاً اذا لم نصبر طوعاً

وقد رأى الترجمان ان يجعل هذه الزورة فاتحة للتجسس . فأخذ يقصّ عليَّ انهُ كان جاسوساً وهو تلميذ بالمدرسة وانه تجسس مراراً على عبد الرحمن بك مدير المدرسة السلطانية الكائنة في بيرا وان الرجل أحس منهُ ذلك فطرده وانه رفع أمر المدير الى السلطان مستشفعاً بعزت باشا العابد . فصدرت الارادة بقبوله في المدرسة حتى اكره المدير على ذلك اكراهاً

فقلت للرجل وقد فهمت ما يريد : وما يعنيني يا اخي . من حديثك هذا . اني امرؤ لا أحب الجواسيس ولاأجد لذة في استماع اخبارهم

— انا لست من الجواسيس الذين يتسلطون على الناس فيؤذونهم من غير داعية الى ذلك . ثم اني لا استرق احاديث أصحابي ولا اخفي عنهم شيئاً من امر تجسسي . ولكنني أوذي من يبادئني بالشر . هذا أمضى سلاح يحمله العاقل

— يا سيدي . ما بينك و بيني سابقة وداد ولا دالة . مالي انا ومهنتك وعادتك وسلاحك . انا رجل منفي مبغض الى السلطان والى كل مخلص له . دعني وما انا فيه والتمس لك غيري . فرحل عني الخبيث حاقداً واضمر لي الانتقام . و بينا انا في داري ذات يوم واذا رسول من الوالي يستقدمني اليه . فاجبت مسرعاً وادخلت عليه ساعة وصولي . فتلقاني بوجه لم آنس اليه واستدناني منه وامر ان لايدخل علينا ثالث . ثم التفت الي فقال

— ألم أقل لك . يا فلان . ان في البلدة جواسيس وان رزقهم موصول بقطع ارزاق الناس ؟

— بلى . قال سيدي ذلك

— اذن فما حملك على ان تجلس الى برويستاكي وتحادثه وتقول له : ان لديك جرائد مصرية تريد ان توزعها على الاحرار الذين بسيواس

— لم أقل شيئاً من ذلك

— انا أعلم انك لم تقل . لأن المراقبة على البريد شديدة . ولا تستطيع ان تستجلب عدداً من جريدة مصرية الاَّ ويقع في أيدي المراقبين . ثم أعرف انك معتزل مطالعة الجرائد وانك رضيت لنفسك

العزلة عن الناس دفعاً لشرهم واتقاءً لمفترياتهم . فسرني ما عرفت من حالك ولكن ترجمان الولاية كذب عليك هذه الكذبة وقد صادفت اذناً مصدقة. فكتب اليّ بعض المقربين يسألنا عنك ويستخبرني عما زعمه الزاعم . واني سأدفع عنك كل ريب . غير اني لا أضمن لك النجاة كلما وقعت وقعة . فاحذر بني ولا تقبل زيارة احد من هؤلاء

فأثنيت على مروءة هذا الامير بما استطاع لساني وخرجت من عنده وكل روحي معجبة به . وما بلغت المنزل الاّ وفي يد والدتي خطاب تقرأوه والى جانبه آخر أشارت بيدها ان خذه انه لك . فالتقطت الكتاب واذا هو من عند شقيقي يوسف حمدي يكن . فأخذت في قراءته فما راعني الاّ خطوط سود مدت على سطوره فأخفت كلماتها . فحاولت حل تلك الرموز التي نسجت عليها دار البريد نسجها الاسود . فما استطعت مضياً . فمن لي ان اضع الكتاب على لوح من الزجاج من الواح الكوى ففعلت . غير اني لم استخرج الاّ كلمات كقوله : بعض الباشاوات وعصابات مكدونيا وانهزمت العساكر . فعلمت ان شقيقي اراد اخباري بوقائع جرت في الروملي وان مراقبة البريد استطلعت ذلك فمحته . فأسفت على ما فاتني من العلم بتلك الوقائع ولكنني كتمت تأسفي وارسلت كتاباً ألوم فيه شقيقي على تعرضه لامور لا حاجة لي بها

كلمة في الاناضولي

ما اتخذت حوادث الأيام مستقراً لها مثل الاناضولي . عصفت عليها رياح الشدائد وفيهـا انتهت الى السكون . من عهد رمسيس او قبله . اشتدت فيها هم الفاتحين وتراخت . ما برحتها خيول الفراعنة الآ اقبلت عليها جياد اليونان . ثم تعاقبتها الدول مثل الارمن والرومان ومن بعدهم الى ان قادت اليها المقاديز بناة الملك العثماني . فانتشروا في ارجائها ولا يزال ملكهم بها قائماً

ارض ذات جبال وافلاء وكهوف واحقاف وبحار وانهـار وعيون متفجرات . مترامية الاطراف لا يبلغ ذرعها ولا يسبر غورها . احدى حدائق آسيا . تفرد بالغرابة انسيها ووحشيها . منبت الغالبين والمغلوبين . مرتقى الحضارة ومهوى البداوة . تجاورت فيها شعوب مختلفات عادات والسنا . فلا كر الزمان ألف بينها ولا طول العشرة استحدث فيها تواداً . بل قطعت العصور متغايرة متنافرة حتى بات كل شعب وكأنه عدو لجاره

لم يفتحوا كنوز الأرض فيستخرجوا دفائنها ولم يستثمروها بحرث ولا بسقي فيؤتوا ارزاقهم منها . غفلوا عما يجب وانطلقوا يأكل بعضهم اكلاً

وقد كان من حق فاتحيها ان يعلموا أهلها لسانهم وان يدخلوهم فيما دخلوا فيه . فلا يأتي زماننا الآ وقد استقر كل في قراره واصبحنا بعد ذلك وليس بيننا تنابذ بالدين ولا بالأصل . غير ان الأمر لم يكن كذلك . وليتهم اذ لم يدخلوا الايلاف بين تلك القبائل على ما ذكرت ألفوهم بتعليمهم

او بوصل الانساب بينهم . فكانت اواصر القربى أشد من الدين واللسان جذاباً . ولكنهم ما فطنوا لهذا الرأي ولو فطنوا له لقام في وجوههم جفاة المتورعين قومة رجل واحد

فاما وقد سها الماضون عن هذه الدقائق فكان على اعقابهم ان ينظروا فيها ويحكموا السياسة من وجهة أخرى . ولا ارى تدبيراً يفيد بلادنا مثل عدم المركزية . هذا رأي يفزع اكثر الساسة عند سماعه ولو اطالوا فيه النظر لبدت لهم محاسنه في أحسن الصور

سبعمائة عام مضت والاناضولي في ذمة العثمانيين . كل دولة قامت ثم وقعت تركت فيها أثراً . والدولة العثمانية وهي لا تزال قائمة لا أثر لها في بلادها . وما ذاك الا لان العز بالسيف عز لا بقاء لها . ولأن النجدة لا تسد خلة تحتاج الحكمة . والاسلاب والغنائم كسب المعتدي او كسب الناهب . فهي أقل بقاء من الظل . وانما يغتبط بها من اتخذ ساعده مشاوره ولم يرض صاحباً الا قائم السيف . واشهد اليوم اني من امة فاتحة ذات بأس ونجدة وليست بذات رأي وسياسة

لقد بلغت الدولة العثمانية في ايام سليمان القانوني اقصى غايات المجد والسؤدد . ولكنه لم يستكف له طماح . ما وقعت نظرته على بلد في الخريطة الا واشتهتها نفسه . ما حمله على ان يعبئ تلك الفيالق ويسير على اوروبا . قد كان له سيف ماض وكان من حق ذلك السيف عليه ان لا يصدأ في غمده وكانت له كتائب تموج بصناديد الرجال وكان من حقهم عليه ان لا يتعودوا لين المضاجع . فجعل تاجه علمهم وسار بهم يطأ الخدود ويتخطى الرؤوس من معقل الى معقل ومن ساحة قتال الى ميدان ظفر

يلعب بالتيجان ويستريح في قصور الملوك حتى انثنى وفي كل شعرة من شعرات جسمه قطرة من دم

فما ضر هذا السلطان الفاتح لو اجهد همماته في اعمار بلاده ورفع المباني في مواضع الاعشاش والخيام واستنزل اهل الغارات من اعالي جبالهم واستدرج بهم في الحضارة حتى تزول عنهم جاهليتهم ويأنسوا الى الناس ويستلذوا اطايب الحياة

هذا مرام يصعب منالة على من تراخت عزائمه . اما اولئك الفاتحون ووراءهم ابطال نجدتهم والعيون ملأى منهم والصدور منطوية على هيبتهم . فلا يعجزهم طلاب ذلك . ولسنا نلومهم على ما قصروا فيه عن البلوغ مبلغ المتمدينين في ايامنا وانما نلومهم على ان لم يتأهبوا في زمانهم كمن تأهب من ملوك الغرب . ونذم من كانوا لهم مشاورين وعندهم مقربين من رجال لم يحدثوهم الاّ باحاديث الجنة والنار والحور والولدان ولم يشيروا عليهم الاّ بالجهاد وسبي النساء وجمع الاسلاب ولم يطربوهم الاّ بسير المتقدمين من جبابرة الفرس والعرب والهند واليونان . هزوا المعاطف في كبريائها وعتوها بالمدح الكاذب واعانوا على المبالغة في البذخ وعلى الافراط في التجبر . فظنت الملوك ان الرعية عبدان لهم وان ارواح الناس اليهم مرجعها وانهم اولى بالعباد منهم بأموالهم واعراضهم

وان من البلية ان تنشأ الذراري على حب الفتك والانتقام . فاذا كانت هدنة او تمادي سلم بدلوا من صهوات الجياد فرش النوم ومن بيض السيوف مترعة الاكؤس ومن مجالدة الأبطال مغازلة القيان . وان تصبح الامة كلها على ثقة من حوادث الايام . فتزعم ان لن تبدل حالها وان لن

يخلق الله غالباً لها . وان تؤلف بين الكأس والدين ولا تؤلف بين العقل والدين .

ولاية آيدين . هي احدى ولايات الاناضولي . تستخرج في العام الواحد اكثر من الثلاثة ملايين كيلوغرام من القطن . يباع ربعه في البلاد ويرسل باقيه الى اوروبا . واكثر من المليون قنطار من العنب الذي لا بزر له والعنب المعروف بالرزاقي والعنب الاسود ويصنع من الكل الزبيب . ينتفع اهل البلاد بالقليل منه ويحمل جله بعد ذلك الى اوروبا . ويجني اهل ايدين من التين اكثر من الاربعة ملايين كيلوغرام ومن الزيتون الذي اهمل شجره ولم يلقح ما يربى ثمنه على الثلاثمائة ألف جنيه . هذا والزراعة في تلك البلاد لم يدخلها شيء من مستحدثات الفنون العصرية ولصوص (الزيبك) تقطع الطرق وتشن الاغارات على القرى والحكومة لا تحرك ساكناً والمتغلبون يسلبون كل ما وقعت عليه انظارهم

وكم بالاناضولي من بلاد كنوزها مقفلة ومفاتيحها بيد الحكومة . لا هي تفتحها ولا تأذن للامة بفتحها . هذه اركلي يستخرج منها الفحم الحجري ألوفاً من القناطير وفي طرابزون وارضروم معادن من الفحم والكهرباء الاسود (الكهرمان) لم تعمل فيها يد عامل . وفي كوشخانة وطرابزون وتوقاد من معادن الفضة والرصاص والحديد والنحاس ما لا يحصيه عد . لا تنتفع الدولة ولا ابناؤها الاّ بالقليل منها . وفي ولايتي قونيه وانقره مقادير من الملح الصخري وفي شواطئ البحر ملاّحات جمة لولا مصلحة (الديون العمومية) لاندثرت معالمها وخفيت آثارها

كان المسافر من منذ عشرين سنة سلفت يخرج في القافلة من

قيصرية الى صامسون . فيقطع في سفره اكثر من الستمائة كيلومتراً وهو في كل اوقاته مطأطئ الرأس من كثرة الأغصان . كل تلك الأرض كانت حراجاً انهارها دافقة وظلالها وارفة ووحوشها سارحة واطيارها متجاوبة . وقد اتيح لي ان أقطع نصف تلك المسافة يوم نفيت فما الفيت بين صامسون وسيواس خمسين شجرة في مكان واحد . خلا ما يعترض المسافر في مدخل توقاد وآماسيا وعلى (چاملي بل) . اصابت المعاول تلك الجذوع فأمالتها وكان منها وقود للناس وكان منها سقائف لهم . ولم يفكر أحد في غرس عود مكان شجرة اقتلعها . ولن يلبث سكان الكثير من الولايات الباردة مثل سيواس وغيرها ان يفنوا بقر الشتاء فلا يجدون وقوداً يحفظون بناره حر الحياة في اجسادهم

يعز على الحر ان تبيت هذه الاقطار الشاسعة على ما فصلت من الحال وان يظل أهلها وهم اكثر من الثمانية مليون وليس بينهم ما يزيد على المائتي ألف نفس ممن يعرفون القراءة والكتابة . وتلك معرفة لا تكشف عن البصر غطاء ولا تبعث في القلب نوراً . حفظ الناس امثالاً كقولهم القناعة كنز لا يفنى وسفينة التوكل لا تغرق وقام بينهم رجال يقولون لهم ان الدنيا دار غرور ومستودع باطل ولا عيش الا عيش الآخرة . وحببوا اليهم التواكل والخمول وبغضوا اليهم محاسن التمدين . فقالوا : هذه من اعمال الكافرين وهم أصحاب الدنيا ولا ينبغي لنا ان نتشبه بهم ولا ان نزاحمهم فيها وانهم لحاسدونا غداً في الجنة اذ نأوى الى نعيمها الخالد ويلقون هم في النار لعذاب خالد . وبذا فترت الهمم وصغرت النفوس وقلت الآمال . فترى جماعات من الناس جالسين الى اصل جدار او

مستظلين بظل شجرة يتثاءبون . حديثهم كله لغو وهـذر وانسهم ذكر الغانيات وقصص الغرام وكل رجل منهم يحمل مسدساً او خنجراً وليس في بيت أحد منهم كتاب يستفيد منه

على ان اهل الاناضولي شداد شجعان اهل ذكاء يحبون الكرم وللاضياف عندهم منزلة السادة والغريب في ارضهم محمي الجانب مشفع لا يشتكي وحدة ولا يعاني هماً . وان خيرهم طباعاً واكثرهم دعة واجدهم عملاً لمن اهل القرى . اولئك يبخلون بالخبز على انفسهم ويضنون بالوثير من الفرش والغطاء على ابنائهم ويدخرون ذلك كله لضيف طارق . لا يقبلون منه اجراً ولا يسألونه شكراً ولا احدوثة عند الناس وانما يصنعون ذلك كرماً لا تكرما

كأن نوب الدهر التي تناوبتهم منذ العصور ابقيت فيهم بقية رمق حتى جاء عبد الحميد يستنفد تلك البقية . سل عليهم سيف البغي واستحل منهم كل ما حرمه شرع ولم يسمع منهم شكاية ولا انس ضجرة . بل علت من جوانب عرشه اصواتهم بالدعاء وكان منهم الجازرون وكانت منهم الاضاحي

كانت الحكومة تنفذ الفارس الواحد من فرسان الجاندرمة ليجبي لها المال من القرى فلا ينزل الاّ على ابسطهم يداً واحسنهم حياة . رجل لا يملك الاَّ بقرة او بقرتين وليس له من الأرض الاّ فدان او فدانان . فيقول له : اشبع فرسي علفاً واطبخ دجاجات آكل منها ما يشبعني وانزود منها لسفري واسقني الخمر حتى اسكر وابغني مغنياً او مغنية وانظر هل عندك من المال فضلة فآخذ منها حاجتي . ثم يصبح فيطالب الرجل واهل

القرية بمال الحكومة فما يدفع له أحدهم الاَّ استزاده وما يمتنع عليه احد لعلة تكون اصابته الاَّ ويطرحه ارضاً ويرفع السوط ويضعه من كاهله الى قدمهِ . ثم يأخذ فرشه وما ملكت يداه فيبيعهُ ويخرج من القرية خروج الملك الغالب من المعركة . ولولا اعتقاد في اولئك المساكين بان عاصي السلطان ملعون من الله والملائكة وانهم مأمورون بالطاعة له وان جار لكفت نفخة واحدة من افواههم يستطيرون بها ذلك الفارس وفرسه . ولولا هذا الجهل المخيم على عقول الأمة ما دام الحكم الحميدي ثلاثة وثلاثين عاماً

لا تزال بلاد الاناضولي الى يومنا هذا على باهليتها . لم يتغير فيها شيء . وكلما سنحت فرصة وشاءت الحكومة ان تستفيدها بمد خطوط الحديد او منح امتياز يغني ثراء البلاد لعبت الجارات المجاورة لعبها . وحالت دون النجح . كما ظلت جارتنا العظيمة تعترض الحكومة في الخط الحديدي بين صامسون وسيواس . كل دولة تدعي لنفسها حقاً قبلنا ونحن لا نعترف بحق لواحدة منها . وربما جاء يوم تُقبل فيهِ الجموع المتغلبة علينا تطأ مقابر الآباء والاجداد وتتخذ منا عبيداً وإماء . فتقول لنا يومئذٍ انتم لا تصلحون لأن تسوسوا بل تصلحون لان تساسوا . هذه مكاتب أدخلوا فيها أبناءكم طوعاً والاَّ ادخلناهم كرهاً وها كم آلات الحرث والزرع فاعملوا طائعين قبل ان تعملوا مكرهين . تلك نعم يتصدقون بها علينا بعد ان ينالوا أعز شيء لدينا وهو الاستقلال . لا أحيانا الله الى مثل تلك الايام

أرض تتكنفها القوقاس و بلاد التركستان والعجم وخليجهم والبحار

التي تجري فيها سفائن التجارة والاستعمار وترى منهـا اوروبا معقلاً في شرقها يكاد ينيف على غربها ويظل الحاكم والمحكوم مستغرقين في نوم لا تعقبهُ انتباهة ثم يدعوننا بسلام : هذا ما لا يكون ابداً

جغرافية ولاية سيواس

سيواس هي احدى الولايات الجسام التي اختُطت في الاناضولي ينتهي شمالها الى طرابزون وشرقها الى أرضروم وجنوبهـا الشرقي الى معمورة العزيز وجنوبها الى حلب وأدنه وغربها الى انقره وغربها الشمالي الى قسطموني . فهي بين الدرجة الثامنة والثلاثين والدقيقة العاشرة وبين الدرجة الحادية والأربعين والدقيقة العشرين من العرض الشمالي . وشكلها شكل مثلث غير مستقيم الخطوط . وتبلغ مساحتهـا ٨٣٧٠٠ كيلومتر مربع . وعدد سكانهـا على ما جاء في احصاء سنة ١٣٢٥ هجرية هو كما يأتي

٩٦٨٧٨٦	مسلمون ومنهم الأكراد والمستوطنون من مهاجري القوقاس
١٤١٦٤٣	أرمن
٦٤٥٠١	أروام
٣٢٧٨	كاثوليك وأكثرهم من الأرمن
٤٣٣٦	بروتسانت وأكثرهم من الارمن
٢٢٩	يهود
٢١٧٣	أقباط
١١٨٥٠١٦	المجموع ستة عشر وخمسة وثمانون ومائة ألف ومليون

فاذا قسم هـذا المجموع على مساحة الولاية اصاب كل كيلومتر ثلاثة عشر نفساً . وعدد الذكور ٦١٨٣٤٥ وعدد الاناث ٥٦٦٦٧١ واني لأتعجب ان يكون عدد الذكور اكثر من عدد الاناث في بلاد مثل بلادنا دائمة الفتن وشديدة الكلف بالتجنيد . وما ذاك الأ من حسن الطالع دام للأمة ابتسامه

جبال الولاية — أعظم جبال سيواس سلسلتان . احداهما تبتدئ من أدنه ممتدة من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي فتقطع سيواس من جنوبها الشرقي حتى تنتهي الى جبال ارضروم . وكان القدماء يسمونها (انتي طاورس) . والاخرى تبتدئ من جبال أرضروم ممتدة غرباً بين طرابزون وسيواس . وتسمى (پونت) . وأعلى شامخات السلسلة الأولى هو جبـل (قره بل) فعلوّ ذروته ٣٢٧٦ متر . أما سائر الذرى فعلوّها بين الالفين وبين الالفين والخمسمائة من الأمتار . وأشهر جبال السلسلة الثانية هو جبل (چاملي بل) وعلو ذروته ٢٥٠٠ متر وقد سبق ذكره في سياق الكلام على رحلتي الى سيواس

أنهار الولاية — في ولاية سيواس نهران هما أعظم أنهارها . اسم الاول (قيزيل ايرماق) ومعنـاه النهر الأحمر واسم الثاني (يشيل ايرمـاق) ومعناه النهر الاخضر . اما (قيزيل ايرماق) فينبع في جبل (قيزيل طاغ) الكائن بقضاء (قوچكيري) . فيجري في جنوب الولاية متجهاً الى الغرب الجنوبي منها حتى يدخل ولاية أنقرة . ثم يتدفق الى الغرب في مجرى كالقوس الكبير فيطوف حدود ولاية قونية وحدود ولاية قسطموني . ثم يعود الى الشمال الغربي لسيواس فيأخذ مجراه بينها وبين قسطموني وطرابزون .

ثم يدخل ولاية طرابزون ويظل بها باقي مجراه الى ان يختلط بالبحر. وطول (قيزيل ايرماق) ألف كيلومتر. أكثر من نصفها يجري بسيواس واما (يشيل ايرماق) فحاصل من تلاقي نهرين. احدهما نهير (طوزانلي) ينبع في شمال جبل (كوسه) وطوله ٢٣٠ كيلومتر وثانيهما نهير (چيقريق) ينبع في (چاملي بل) وطوله ٢٢٠ كيلومتر. وانما يتلاقى النهيران بعد ان يجتازا (قاز اووه). فيمر (يشيل ايرماق) بمدينة اماسيه فيتلاقى بالنهير المسمى (ترس آقان) ثم يقطع (طاش اووه) فيلحق به نهير (كلكيت) فيتدفق حتى ينتهي الى البحر الاسود مجتازاً بولاية طرابزون

وقد شاءت الحكومة الحميدية ان تطهر (قيزيل ايرماق) وتسير فيهِ السفن تسهيلاً للتجارة ولكنها استكثرت النفقات فرجعت الى العجز وسكتت

الهواء والصحة في الولاية — الأرض في ولاية سيواس كثيرة اختلاف المواضع صعوداً وصبوباً وماءً وتربة وشكلاً وحالاً. وهذه الاختلافات تستحدث الاختلافات في الصحة. اذ لا يصح ان يكون اقليم مدينة سيواس وهي تعلو عن سطح البحر ثلاثمائة وألف متر مثل اقليم آماسيا وهي لا تعلو عن سطح البحر الا أربعمائة متر. وبعد فالولاية كلها جيدة الهواء خلا مواضع قليلة فيها. وتلك المواضع هي ولا ريب خير من ولايتي طرابزون وادنه. ولولا جهل المستوطنين وافلاس الحكومة الزائلة وخستها لخلصت البلاد من امراض كثيرة لازمتها ملازمة المستوطن. فان الحمى التيفوئيدية وحمى التيفوس لا تكفان عن الفتك. وتأتي بعدهما الحمى القرمزية ثم السل وضحاياهما قليلة ولله الحمد.

اما داء الحصاة فلا يغادر مدينة سيواس ابداً . على ان زيادة المواليد مضطردة عاماً فعاماً . فهي تزداد كل عام نحو العشرة آلاف مولود

أجل ان هنالك عظائم لا تفلح في مغالبتها المساعي . كتوالي التغيرات الهوائيـة في أيام الربيع وتمادي المطر اياماً كثيرة يقلع ليلاً ويغدق نهاراً ودوام الوحل والرطوبة في الطرق كلها . ولكن مضار هذه الاشياء لا تذكر اذا قيست الى ما يتولد من البرك والمستنقعات من الامراض . وتلك تسهل ازالتها بمال لا تعجز عنهُ الحكومـة لو تكلفتهُ . هذا ودرجة الحرارة لا تجاوز الثمانية والثلاثين في الشتاء تحت الصفر ولا الثلاثين فوقه في الصيف

الزراعة في الولاية — ولاية سيواس هي من اكثر ولايات الاناضولي خصباً ومن اجودها تربة واحسنها مرعىً . لا يجد الباحث المجد في جبالها الشامخة وسهولها المنبسطة موضعاً لا يصلح للزرع الاّ نادراً . وانما يختلف خصبها باختلاف ارضها . فما ينبت في توقاد وفي اماسيه لا ينبت في مدينة سيواس وفي (قره حصار) . تجود تلك الاراضي بما يغرس فيها من اعواد وما يلقى فيها من بذور سوى ما كان خاصاً منها بالبلاد الحارة كالتمر وما كان أليفاً بشواطئ البحار كأشجار الليمون والبرتقال والزيتون

غير ان الزراعة في سيواس مهملة اهمالاً . فلا اهلها يعنون بها ولا الحكومة ترغبهم فيها . وكم يرى السائر في أرجائها من ارض خصبة بالنبات البري تركها أصحابها عجزاً عن استثمارهـا . وفن الزراعة عندهم مفقود . وليس في تلك البلاد أثر للآلات التي استحدثها العصر الجديد . ولا بها شيء من معدات النقل يبعثون بهِ ثمرات أرضهم الى البلاد القاصية

على ان توقاد وآماسيه تجودان من الفاكهة بكل لذيذ طيب . فليس على وجه الارض تفاح مثل تفاح آماسيا. وعنب توقاد مشهور يخمر نبيذاً ويقطر عرقاً ويؤكل فلا يستنفد ولا يمل . وكرومها غاية في الحسن والكثرة . ولكنها لم تمتع بيسير ما جاد بهِ الترقي العصري في اسلوبها

حيوانات الولاية ووحوشها واطيارها — البقر والغنم والماعز وداجنات الطيور في الولاية كثيرة يقتنيها الموسر والمعسر . اشتريت فيها بقرة حلوباً ومعها عجلها بثلاثمائة قرش . وفي ذلك دليل على الكثرة والابتذال . والدجاجات والحمامات الداجنة والبرية لا يحصيها العد . لقد كنا نبتاع الزوجين من الحمام البري بقرش واحد . وكذلك الحجل . اما الدراج فكنا نذهب لصيده ونجهد في طلبه والبط والاوز وسائر اجناس الطير اكثر من ان يعد . هذا مع تهافت الناس على الصيد في غير أوانه ومع كثرة الطيور الخاطفة كالعقبان والصقور . وجبال الولاية كثيرة الارانب والثعالب والذئاب . وانما تكثر ذئابها في الشتاء فهي تطوف جماعات فيشتد فتكها ويعم ضررها . وفي حراج العزيزية ونيكسار من الدب والوعل والخنزير البري ما لا يجهد قناصاً . ولأهل ولاية سيواس كلف شديد باقتناء الخيل واكثرها من الجنس القوقاسي . وأشدهم عناية بها وكلفاً هم المهاجرون من القوقاس (الجراكسة) . ففي قضاء العزيزية وحده من الخيل نحو الثلاثين الف رأس . وهذه الخيل أصلب من خيول العرب قوائم وأحمل ظهوراً واكثر صبراً على السير والجري ولكن الخيول العربية احسن منها اشكالاً واكرم أحساباً وأسرع ركضاً وأسلس قياداً وألين متوناً . وقلَّ في الجركس رجل لا يملك جواداً او

جوادين . وقد يجد فرسان الجيش العثماني في سيواس حاجتهم من الخيل غير انهم يجدون تربيتها صعبة المرام

التجارة والصناعة في الولاية — لو كانت ولاية سيواس متمتعة بما تتمتع بهِ بلاد الله من اسباب العمران لأفادت الدولة واستفادت . فان أهلها ولا سيما الارمن منهم أهل جد واجتهاد لا يعرفون الملل ولا يعجزهم شيء . وانهم مع ما بلوا بهِ من الحرمان من الآلات والادوات يصنعون لانفسهم ما يكون لهم معواناً على الاستمرار في صناعتهم . عرفت صانعاً من مهرة صناعها اسمه الحاج اوسكيهان . كان يصنع بنادق المارتيني والمسدسات فتفوق ما تصنعه مصانع اوروبا . ضربت الحكومة الحميدية على يده وقالت انت ارمني وربما أعنت قومك وأعددت لهم عدتهم من السلاح . فكف الرجل عن البنادق والمسدسات واخذ يصنع الاقفال والكوانين وغيرها . ثم اتهمتهُ الحكومة بضرب النقود الزائفة فصادرت آلاته وادواته وتركتهُ يطلب قوتهُ فلا يجده . فلما أعيتهُ الحال فرّ مهاجراً الى اميركا وبلغني بعد ذلك انهُ بات يلعب فيها بالذهب . وعرفت صانعاً آخر اسمهُ نورادنجيان . كان لا يحتاج آلة من الآلات الاّ صنعها بنفسهِ . وله من المصنوعات ما يتباهى بهِ كل محب للوطن . ولأهل سيواس مهارة تذهل عندها الالباب في صنع الخناجر والمطاوي . فقد فاقوا في ذلك على صناع شفيلد . غير ان مطاوي سيواس لا تشبه مطاوي شفيلد حسناً ولا شكلاً . أما الخناجر الجركسية فليس في صناع الاقطار من ينافسهم فيها

كذلك التجارة . فلقد اقتنيت من نفائس مصنوعات القوم ما لم

أرَ خيراً منهُ — ولو تهيأ لي استحضار بعضه لفعلت . ولو رأى القارئ الكريم مهارة الصياغ فيما يصوغون من الحلي ذهباً وفضة لتناهى في تعجبهِ . كل ذلك يبدعونهُ ويجيدونهُ بلا آلة تذكر سوى ما لا تخلو منهُ كف حداد شرقي من مبرد ومحفر وما ماثلهما

ومن جيد الصناعة السيواسية نسج الحرير . غير انهم لا يبدعون في اجزاءه وانماطه . اما النسيج فحسن دقيق واما الالوان فكثيرة زاهية . فلا تروج في اسواق الغرب . وأهل أماسيه وتوقاد متفردون بصناعة نسج الحرير

اما الطنافس والسجادات فقد فاقت ما يُصنع منها في بلاد الفرس جودة ورونقاً . وقلّت نسوة هنالك لا تحكمن نسج السجادات . هذه صناعة لا تكاد تجهلها فتاة سيواسية ولا يكاد يخلو منها بيت في سيواس . ولتلك المنسوجات منزلة في البلاد الغربية لا تسموا اليها بضاعة من بضاعات الشرق بأسره . ويبلغ عدد المصانع التي تصنع السجادات والطنافس في مدينة سيواس وضواحيها اكثر من العشرة آلاف مصنع . لا يعمل فيها الا النساء والبنات . وقد تجد نساء القرى في هذه الصناعة تسلية اذا اشتدت ايام الشتاء وطالت البطالات . والطنافس في جودتها وبهائها درجات . فالطنافس المسماة (رشوان) هي المتفردة بمنتهى الرونق . لا ينصل لها صبغ ولا يتغلب عليها القدم . ومثلها الطنافس المنسوجة بقضاء العزيزية وتسمى صارز وافشار . ودون هذه الاستار الكردية وتنسج بقرية (قرانلق) التابعة لقضاء (قانغال) وفي قرية (ايوالي دره) التابعة لقضاء (دارنده) . ودونها الطنافس المسماة (ايلبكلو) فهي وان

أشبهت نوع (رشوان) احكاماً ولكنها لا تماثلها حسناً . وهي تصنع في ناحية (ايلبكاو) ثم تأتي الطنافس المعروفة بالمشبك وتنسج في اكثر القرى التابعة (لقانغال) و (يلديز ايلي) وغيرها

وتبقى هذه الطنافس الاخيرة منها اكثر من الخمسين عاماً . تطاؤها الاقدام وتستعمل في الخلوات على التراب وغيرها وهي لا تزداد الا جدة . وكلما تقادم عهدها كثرت قيمتها

وسجادات سيواس هي من بدائع الصنعة في هذا العصر . عرف ذلك الاجانب وادركوا رجحانها على سجادات الفرس . فاغلوا اثمانها وتنافسوا في اقتنائها وتسابقوا الى الاكثار منها . وفي سيواس مصنع اليوتي الشهير وهو شركة بين الموسيو آلبر اليوتي والموسيو بيكر والموسيو دالندريا وتختلف قيمة ما يصنع من السجادات من عشرة الى خمسين جنيهاً ثمناً للسجادة الواحدة

ولا تقف المنسوجات السيواسية عند هذا القدر . بل هناك انواع اخر من الصوف والكتان والقطن . ينالها الفقير ويعجب بها الغني ويتخذها المسافر تحفة وتهاداها الاحباب فيما بينهم . ويوم تمد خطوط الحديد بين سيواس وصامسون يسعد اهلها ويكثر رزقهم وتتجدد فيهم العزائم

المعارف في الولاية — اذا لم تكن سيواس اكثر ولايات الاناضولي جهالاً فهي من اكثرها جهالاً . ذلك بان المسلمين طبعوا على حب قديمهم فلا يريدون الجديد منه بديلاً . ولا تزال في خزانات بعض المتعصبين كتب طوت معارف هذا العصر لغوها . وينظر اولئك القوم الى ما كلف به شباب هذا العصر من المعارف . فلا يجدون فيها لذة ويكرهون

تداولها بينهم . هذا شأن من في بيوتهم كتب يقرأونها : فما ظنك بمن ليس في بيوتهم الا المسدسات والا البنادق . اما المسيحيون فهم فريقان قليل من الروم وكثير من الارمن . ففريق الروم لا يفوق المسلمين في حال من الاحوال . ولا مشابهة بينهم وبين من عرفت من روم الآستانة وازمير وغيرهما . وقل فيهم الغني ومن له جاه او منزلة تميزه عن غيره . وفريق الارمن بمثابة من العلم والصناعة والتجارة لا يساميهم فيها أحد . ولهم السبق في كل مضمار . ولولا ما دهمتهم به المذابح من نهب اموالهم وقتل سراتهم لبلغوا شأواً تقصر عنهُ الهمم

والأرمن قوم أولو جد ونشاط . كلفون بالعلوم لا يستكف لهم شوق ولا تفل لهم عزيمة . فهم يتسابقون الى مدارس اليسوعيين والبروتستانت والى مدارسهم الاهلية فيصيبون منها الحظ الاوفر . والمسلمون يصدون عن سبيل تلك المدارس خوفاً ان تفسد على ابنائهم دينهم . واذا خالفهم في رأيهم مخالف لجوا في الوقيعة بهِ وأطالوا اجتنابه . وكم يرى نزيل سيواس في أهل الحرف وابناء التجار من سكانها الارمن شباناً اذا تكلموا بالفرنساوية او بالانكليزية ما شك انهم تعلموها في مدارس اوروبا . وليس في ابناء الوجهاء من المسلمين خمسة يكتبون التركية ويؤدونها صحيحة . وليس في مدينة سيواس سوى مدرسة اعدادية واحدة وهي كأحسن ما رأيت من البنايات وأوسعها . وحظها من العلم كحظ الصخرة الصماء من النبت . والكتب التي تقرأ في هذه المدرسة كتب مهجورة لا يعرفها اكثر فضلاء هذا العصر . مثل كتاب المشذب في قواعد اللغة العربية . كله تصريف فعل نصر . فترى صحائفه حواشي

وانماطاً بنصر ينصر نصر منصورا منتصرا مستنصرا منصّرا متناصرا .
واللغات الغربية لا يحسنها الاساتذة . والعناية بعلوم الدين بالغة منتهاها

سألت بعض المتقدمين من تلامذة تلك المدرسة أسئلة فيما يعاني من الفنون فبدا عليهِ العجز وبهت لا يجد جواباً . ثم سألتـهُ عن اركان الصلاة والصوم فانطلق انطلاق الصقر من وكره . فأخذ مني التعجب . فقلت : ما بالك تحسن الجواب في هذه القواعد واذا بلغت الى غيرهـا غلب عليك الوجوم . فقال : هذه من امور الدين . لا يكون المسلم مسلماً الا بمعرفتها . اما تلك فليست من الدين في شيء . فاستشعرت في فوآدي حسرات على تلك الشبيبة وقلت : لقد بلغ بكم السفهاء مبلغاً لا يرجى بعده خيركم وأيقنت ان للبلاد العثمانية ايامًا باقية من الشقاء لا بد لها ان تستوفيها

وفي سيواس جوامع عتيقة بها معاهد للعلم يسمونها مدارس . وهم يسمون المدارس مكاتب . وقد نحوت نحوهم في كثير من مواضع هـذا الكتاب . وانما يجاور في تلك الجوامع الناس من أهـل البطالة فراراً من الجندية واكتفاء من الرزق بما لا يتجشم له تعب . فاذا أفلح في علومهم أحدهم رأى في نفسه مفرد العلم وخرج في طلب الوظائف او جلس في المساجد يعظ الناس ويضل عقولهم ويميت نفوسهم بالتعصب . ولا يطهر الله البلاد العثمانية من هؤلاء القوم الا بعد سنين عديدة أقلها عصر واكثرها عصران

ومن تمام البلية ان نظارة المعارف تتخذ أساتذة مدارسها من رجال تشفع فيهم القرابات والوصايات وما يهبون لبعض رجالها من المال . فلا تختار ولا تمتحن . والتلامذة يذهبون الى مدارسهم ومعهم الاسلحة من

مسدسات وخناجر ينازل بعضهم بها بعضاً . وقد يكمنون في الطريق لمن يشدد عليهم العقاب من الاساتذة ولمن يخافونه عند الامتحان . فيخرجون عليه متوعدين ولا يفارقونه الا اذا حلف لهم الايمان المغلظة ان يراعي جانبهم . وهذه معايب ما أظن ان لها أشباهاً في سائر أقطار الارض

آثار القدماء في سيواس

سيواس هي احدى المدن التي كرت عليها العصور الخوالي وتعاقبت فيها الدول المختلفات . كل دولة قامت فيها او أقبلت عليها خلفت لنفسها آثاراً . فلما أتت دولتنا أخذت تمحو آثار سابقاتها غير مستحدثة شيئاً تبقيهِ للأجيال المنتظرة . قام آباؤنا وأسيافهم وأعنة خيلهم بايديهم يثلون العروش ويقلبون الممالك . فما ورثونا مما يورث الآباء أبناءهم الاَّ اخبار وقائع خفقت بالنصر راياتها . وهذه مفاخرنا التي نساجل بها أمم الارض

ولقد مرَّت بسيواس حوادث من الايام . فأفوت معالمها ودرست آياتها . تلك اغارات المتغلبين من أمم الارض . ما زالت تأتكل حتى أكلها الابد

وكان من حق سيواس ان يبقى بين أنقاضها بعض النفائس من الدمى والحجارة المنقوشة والادوات والآلات وما استعان به اهلها الاولون على مصانعة الحياة . ولكنها اليوم صفر من ذاك كله . وربما عثر المحتفرون في الارض وقطاع الصخور على تماثيل صغار من الرخام او النحاس . فيكسرونها ويفنونها . زعماً منهم ان تلك النفائس آلهة الكافرين عبدوها من دون الله . فهم يحطمونها انتقاماً منها اذ لم يتمكنوا ان ينتقموا

من أربابها . وهنالك بقايا اطلال من أيام الرومانيين مثل الجسر الروماني الكائن على مسيرة ساعة ونصف من شمالي سيواس الشرقي . وكالقبة التي في خارج المدينة على طريق صامسون وانا أحسبها بنيت بعد السيد المسيح عليهِ السلام . ومثلها الكنيسة المسماة (خوي كسان) وهي تبعد نحو الاربعة اميال عن تلك القبة . هذه آثار لم أهتدِ الى تاريخ اعوّل عليهِ في نقل اخبارها . شاهدتها مراراً في اقوائها ودثورها . فطأطأت الرأس عندها اجلالاً وأنشدت ما قال صريع الغواني

هاجت وساوسه برومة دور دثر عفون كأنهنَّ سطورُ

ولو كانت هذه الآثار في غير بلادنا لجدد دارسها ولأعيد لها رونقها غير اننا رجال حرب ولسنا رجال عمران . ولما نظرت الى المساجد والجوامع رأيتها أقل خراباً وأبقى على حدثان الدهر . فعلمت ان الذين عنوا بها جعلوا عنايتهم للدين دون التاريخ . وها أنا ذاكر هنا بعض ما عرفت من أمر تلك المعاهد

المدرسة الشفائية — أنشأها كيكاوس الاول بن كيخسرو أحد الملوك السلاجقة . وقد جعلها مستشفى ومدرسة طبية . كما تدل عليهِ النقوش والكتابات التاريخية التي على بابها . والمدرسة بناء مستطيل الشكل في وسطه رحبة واسعة . قامت على جوانبها عمد من الصفاح تعلوها حنايا من الرخام المزين بأنواع النقوش جعلت تحتها الحجرات . وقد نقش على باب المدرسة هذا الكلام بالعربية : « أمر بعمارة هذه الدار الصحية السلطان ظل الله في العالم ادام الله ايامه عز الدينا والدين ركن الاسلام والمسلمين سلطان البرّ والبحر تاج آل سلجق ابو الفتح

كيكاوس بن كيخسرو برهان امير المؤمنين في تاريخ سنة اربع عشرة وستمائة » . وفي أعالي تلك العمد وأسافلها نقوش كأبدع ما رأته العيون . وعلى ابواب الحجرات نقوش وكتابات بأحرف بارزة تتضمن آيات قرآنية وأحاديث نبوية . وفي احدى تلك الحجرات ضريح كيكاوس بن كيخسرو باني المدرسة . قبتها ذات شكل مخروط يعلوها شيء كثير من النقوش الصينية والكتابات الكوفية . وعلى باب الضريح لوح من قطع الآجر طوله خمسة امتار وتسعون سانتيمتراً وعرضه خمسة واربعون سانتيمتراً . نقش عليه الكلام الآتي بالفسيفساء

(لقد اخرجنا من سعة القصور الى ضيق القبور يا حسرتاه ما اغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه تحقق الانتقال وتبين الرحال عن كل ما اوشك الزوال في الرابع من شهر شوال سنة سبع عشر وستمائة)

وبين هذا اللوح وأعلى الباب موضع فيهِ كثير من النقوش البارزة من الصفاح والفسيفساء . وعلى الجدار هذه الآية مكتوبة بالخط الكوفي (كل من عليها فانٍ ويبقى وجه ربك ذي الجلال والاكرام صدق الله) وكتبت فوق الباب ايضاً في أقرب المواضع منهُ : (إنا لله وإنا اليهِ راجعون)

ثم ان على جهتي باب الضريح نافذتين كتب فوق اليمنى منهما (عمل استاد أحمد . . .) وهو ولا شك اسم الصانع الماهر الذي حلت يمينهُ ذلك البناء بتلك البدائع

وفي داخل حجرة الضريح أضرحة أحدها ضريح كيكاوس والأخر لا يعلم من فيها ولعلهم من أهل بيتهِ . وعلى صناديق تلك الاضرحة بقايا نقوش من الفسيفساء تدل على انها كانت مزينة بها . ومن يدري اية يد

مدت الى هذه النفائس فاستلبتها . ولقد ذهب جماعة الى ان بأحد تلك الاضرحة جسد الأمير أرطغرل بك ابن السلطان بيلديرم بايزيد خان ولكن ليس هنالك ما يؤيد ذلك

هذه المدرسة التي كان صاحبها اتخذها كلية للطب ومستشفى للمرضى حلَّ بها البلاء من تيمورلنك . وقد استحفظ بما بقي منها على ما وصفت ملوك آل عثمان وجعلوها معهداً للعلوم الدينية من منذ عام ١١٨٢ وبها اليوم من الطلاب اكثر من الخمسمائة . ولها اوقاف في القرى والمزارع المجاورة لها ينفق عليها من ريعها

مدرسة چفته مناره — اي مدرسة المنارتين . هي امام المدرسة الشفائية . وقد دلت حالتها والنقوش التي بقي قليلها على بابها وجدرانها انها كانت اعظم من المدرسة الشفائية . فان ما عليها من التجزيع والتزيين تحار فيهِ العقول . ما شئت من رونق وما شئت من محاسن . لقد رأيت من جمال ما خلف القدماء كل رائع وكل باهر . فما اجد في كل ما مرَّ بي شيئاً اقرنه الى هذه المعجزات الصناعية . شيد جانبا الباب في هذا الموضع بالاجر المرصوص احسن رصّ وتخلل ما بين كل آجرة وأخرى تطعيم بالصيني وبالفسيفساء وكذلك المنارتان القائمتان على جانبي الباب وصار اسمهما علماً للمدرسة

يروى ان هذه المدرسة انشئت لتكون منتجعاً لطلب رواية الحديث . وقد زين بابها بالزينة العربية وكتب عليهِ الآيات القرآنية والاحاديث بالخط الكوفي . وكتب معها هذا الكلام : (أمر بعمارة هذه المدرسة الصاحب الاعظم ملك الملوك الوزراء في العالم شمس الدنيا

والدين محمد بن محمد بن محمد صاحب الديوان خلد الله دولتهُ في سنة سبعين وستمائة) . ويؤخذ منهُ ان باني المدرسة هو احد وزراء الدولة السلجوقية

فاذا نظر المرء من الباب الى داخل البناء رأى ميداناً واسعاً فيهِ آثار غرف ودار رواية الحديث . آثار كان بعضها باقياً الى أوائل زمان عبد الحميد الثاني . ثم عفت فيما عفي في عهده . وكانت نظارة المعارف بدأت في انشاء مدرسة للصناعة بموضع من هذا الميدان ولكنها عدلت عن افتتاحهِ لاسباب لا يعلمها الاّ الله وبقي ما أنشأتهُ خاوياً على عروشهِ الى ايامنا

المدرسة البروجية — وهذه تقرب من موضع المدرستين السابقتين . وبابها مزين أحسن زينة ومحلى باجمل نقش . وعلى حيطانها آيات وأحاديث كتبت بماء الذهب ولم يتغير من بهجتها ورواتها شيء الى اليوم . وفي داخل المدرسة ميدان رحب قامت على جوانبه العمد الحجرية تعلوها آطار متسلسلة . يتخلل تلك الآطار مواضع الحجرات . والعمد كلها منقوشة بالآيات والاحاديث

أنشأ هذه المدرسة مظفر الدين الغازي . وضريحه على يسار الداخل من الباب . وعلى الضريح بقايا نقوش بالصيني وبالفسيفساء تدل على انه كان ملبساً بها . وهذه المدرسة هي مما أصابته معاول تيمورلنك . وقد كتب على الجدار القائم قبالة الداخل هذا الكلام : (بنى هذه المدرسة المباركة في ايام السلطان الاعظم غياث الدين وابو الفتح كيخسرو بن قليج ارسلان خلد الله ملكه العبد الضعيف المحتاج الى رحمة ربه الغفور المظفر ..... غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين في شهور سنة سبعين وستمائة)

هذا ويرى الداخل الى البناء دهليزاً صغيراً ينتهي الى رحبة هي في وسطه كما تقدم . وفوق الدهليز قبة صفت بالحجارة ثلاثة صفوف حلزونية على شكل هندسي يبهر الانظار

كوك مدرسة — ولعل المراد بلفظة كوك السماء . وهي أشد البنايات العتيقة بقاء على غير الايام ونوائب الحدثان . نقوشها ليست أدق من نقوش (جفتة مناره) ولا تقاربها رونقاً ولكنها اكثر جدة . على بابها منارتان كذلك كالتي قبلها . منقوش على أعلى بابها : (عمر في ايام دولة السلطان الاعظم شاهنشاه المعظم غياث الدنيا والدين كيخسرو بن قليج ارسلان خلد الله دولته) ونقش تحته : (أمر بعمارة هذه المدرسة المباركة في ايام دولة السلطان الاعظم شاهنشاه المعظم غياث الدنيا والدين كيخسرو بن قليج ارسلان خلد الله دولته الصاحب الاعظم الدستور المعظم أبو الخيرات والحسنات فخر الدولة والدين علي بن الحسين أحسن الله عاقبته في غرة محرم سنة سبعين وستمائة) . ونقش تحته (عمل استاد كالويان القونوي) . ويدخل الى المدرسة بدهليز تعلوه قبة بديع شكلها . ثم يتجاوز الداخل ذلك الى رحبة البناء . فيرى الجامع على يمينه وكل حيطانه منقوشة أحسن نقش . ومحراب الجامع غاية في البهاء . والخطوط التي على الجدران مكتوبة كلها بالخط الكوفي

ان هذه المدرسة أصغر من اخواتها ولكنها أحفظ لجدتها . وكأن معاول تيمور نبت عنها فلم تحدث بها ضرراً بالغاً . وهي اليوم أعظم بنايات سيواس عمراناً

كوچك مناره — اي المنارة الصغرى . هذا اسم شائع بين العامة

لضريح عظيم هو من بقايا آثار السلجوقيين على ما يظن اكثر الناس . صلب . منيف ترتفع قبته عن الارض ستة عشر متراً . ليس عليه من النقوش والزينة ما يملأ العين . ولكنه محكم يدل ظاهره على جودة في الصناعة . ويروى ان المدفون هنالك هو من الرجال اولي الجاه والسلطان وانه نسل احدى بنات السلجوقيين واسمه (الشيخ حسن بك) . ولقد كتب على الضريح : (وفات مرحوم مغفور . . . . . سلطان شكوفهٔ شجرهٔ سعادت روضهٔ مملكت شيخ حسن بك نور الله) . ولم يتسنَّ لأحد تحرير تاريخ الرجل

هذه آثار استصحبت تصاويرها معي حين غادرت سيواس . واستخرجت بيانها من التقويم الرسمي الذي وضع في ولاية الامير الحر رشيد عاكف باشا بن المرحوم عاكف باشا الشهير . وهنالك آثار جمة كالحصون التي على جبال آماسيا وتوقاد ونيكسار وغيرها . صمتت عنها كتب التاريخ . فلم اتمكن من ذكر شيء تكون فيهِ فائدة لقارئ هذا الكتاب

واردات ولاية سيواس ونفقاتها في سنة ١٣٢٣ مالية

واردات		نفقات		
غرش	نوع	باره	غرش	نوع
٧٬٤٣٥٬٤٦٨	الويركو		٢٬٦٢٩٬٩٠٥	داخلية
١٬٠٢١٬٨٢٣	التمتع		٢٬٨٨٤٬٥٣٧	مالية
٧٬٥٧١٬٠٥٣	البدل العسكري	٢٠	٤٬٠٧٧٬٨٧٨	ذاتية
١٦٬٠٢٨٬٣٤٤	المجموع	٢٠	٩٬٥٩٢٬٣٢٠	المجموع

واردات		نفقات		
غرش	نوع	باره	غرش	نوع
١٦٫٠٢٨٫٣٤٤	ما قبله	٢٠	٩٫٥٩٢٫٣٢٠	ماقبله
٧٫٢٢٦٫٥٩٠	الاغنام		٥٫٠٤٦٫٠٧٨	شرعية
٢١٫٢٥٣٫٩٩٣	الاعشار		١١٫٠٨٤٫٢٤٩	عدلية
٣٦٫٨١٩	الاملاك الاميرية		٢٫٠٧٢٫٤٥٠	الويركو
٣٠٣٫٧٨١	رسوم متنوعة		٣٫١٥٣٫٢٨٤	الجاندارمه
٣٦٧٫٠٠٥	الحراج والاخشاب		٥٨٨٫٤٣٧	البوليس
١٠٫٨٩٣	المعادن		٢٫٣٤٢٫٢٦٠	اسهم
٧٩٨٫٥٥١	عوائد الطابو		٧٥٫٧٧٧	الحراج
٤٠٥٫٧٠١	مصاريف المحاكم	٢٠	٣٣٫٩٥٤٫٨٥٥	المجموع
٩٨٠٫٩٦٣	حاصلات متفرقة			
١١٧٫٠٠٩	المعارف			
٥٤٫٩١٢	توقيفات الرواتب			
٤٧٫٥٨٤٫٥٦١	المجموع			

يتبين للقارئ الكريم اذا قابل واردات الولاية بنفقاتها ان النفقات تزيد على الواردات ١٣٦٢٩٧٠٥ غرش ونصف . وليس للمعارف في هذا القدر كله غرش واحد . هذا والدولة في أقاصي الحاجة . ووالي سيواس اذ ذاك رجل حازم شهم هو رشيد باشا عاكف . فقد وقف للسارقين والمختلسين بالمرصاد . فما وقع امرؤ منهم في يده الا أحل به العقاب الشديد . وكان لا يستثني في ذلك أحب الناس اليه . فلو نما اليه يوماً ان وحيده اختلس درهماً واحداً لما صده عن عقابه اشفاق ولا أخذته عليه رحمة

وكان رشيد باشا في اوائل ايامه قد استوثق من حكومة الآستانة

ان لا يضطرّ الى التضييق على موظفي الولاية في صرف رواتبهم . وقال ان الموظف لا رزق له الا ما يتقاضاه من أجر عمله . فاذا انقطع عنه هذا الرزق بقي حائراً بين ان يفتضح وعياله او ان يمد يده الى أموال الحكومة . واعلم رجال عبد الحميد انه لا يستطيع ان يسوس ولاية سيواس اذا لم يتقاضَ الموظفون اجورهم في اوقاتها . فاجيب الى طلبه شهوراً . ثم وضع عزت العابد طريقة المركزية . وهي ان لا تصرف الرواتب لاصحابها الا باذن يأتي الى كل ولاية من نظارة المالية . فاطال رشيد باشا شكايته ورفع الى المابين استقالته . فلم يجدِ ذلك نفعاً . وكانت الرسائل البرقية تأتي من الآستانة طالبة ارسال المال بمئات الالوف من القروش . فلا يجتمع في خزينة الولاية مقدار من المال الا ويسلم الى البنك العثماني فيحول من ساعته الى المالية . وقد خالف دفتردار ان في بعض الولايات أمر المالية وصرفا رواتبْ شهر واحد للموظفين . فعزلا لشقوتهما وحكم عليهما بان لا يوظفا في الحكومة ما عاشا . فاوقع هذا الحكم في قلب كل دفتردار رعباً لا مزيد عليه

ولقد رأت عيناي مشاهد كلما ذكرتها وجدت لها وجداً عظيماً . كنت اذا جاء آخر الشهر أذهب الى الدفتردار مطالباً بمرتبي . وكان الدفتردار صديقاً لي . فاجلس على كرسي أمامه وأظل أرى أفواج الداخلين والخارجين وهم يمرون بيني وبينه . بأيديهم صكوك تضاعفت متونها وحواشيها أرقاماً وتواقيع حتى أصبحت كالتمائم . يتقدم الرجل من الجماعة محتشماً متخضعاً . فيحيي الدفتردار تحية العبد لسيده ويضع صكه على المكتبة التي امام الدفتردار . فلا يلبث ان ينبذ للرجل صكه ويصيح في

وجهه : لم يأتني اذن المالية بصرف غرش واحد وقد أنفذنا طلباً ثانياً بالاذن ومتى جاء الجواب بالقبول تأخذون رواتبكم

— ومتى يأتي الاذن من المالية

— ذلك علمه عند الله

— نحن . يا سيدي . مضيقون . ديوننا كثيرة ونفقاتنا جمة . وقد مضى علينا ثلاثة أشهر لم نأخذ فيها درهماً واحداً من رواتبنا

— ان لغيركم اربعة اشهر وخمسة اشهر . وهم بعد ذلك صابرون . احمدوا الله على ما انعم بهِ عليكم . ان الموظفين في الولايات الاخرى لهم من الرواتب المتأخرة سبعة اشهر وثمانية اشهر . فانتم اليوم احسن منهم حالاً

وقد ينتهي الجدال بهذا القدر . وقد يتعداه الى الوعيد والشتم من الدفتردار والمطالب . فيتبادر الحجاب والجاندرمة . فيقودون المسكين الى الباب . وهنالك جموع من الرجال والنساء والايتام يتصايحون ويتباكون . لا يثنيهم نصح ولا يخوفهم وعيد . وكان رشيد باشا أمر بايثار هؤلاء وتقديمهم على غيرهم اذا جاء الاذن بصرف الرواتب . ولكم ازدحم فريق من الضباط عند باب الدفتردار فغلق دونهم . ثم دفعوه ودخلوا عليه يريدون ضربه . وعهدي به في اباناث تلك الشدائد يترك غرفته ويجلس في غرفة غيرها لا يظن أحد انه فيها . ولا يدل على مكانه يومئذٍ الا كل من يعرفون له ايثاراً عند الرجل

ومن غريب ما وقع لي مع هذا الرجل اني قصدت غرفته في أشد ايامي املاقاً . وكانت تأخرت لي عنده رواتب ثلاثة اشهر . فرأيت الى جانبه جماعة من كبار الموظفين يدخنون سجايرهم سكوتاً . يراقب بعضهم

بعضاً . فلما بصروا بي تناولتني اعينهم . فسلمت وجلست ناحية انتظر تفرغاً منه . فكلمه أحد الحاضرين في راتبه . فتبسم في وجهه الدفتردار والتفت اليَّ وهو يقول :

— البك في أشد ما يعتاد المرء من الضيق . ولقد يأتيني فيرى ما أنا فيه من الكرب فلا تطيب نفسه الى مخاطبتي في أمر راتبه . وها هو ذا أمامك . أرأيته نطق بحرف ؟ لوددت ان يكون معي كذلك كل اصدقائي

فلما سمعت كلام الرجل أشرت اشارة الموافق على مضض . ثم أقمت دقائق قليلة ودعته بعدهـا وخرجت من عنده وأنا أتعجب من لطف حيلته في اعجازي عن المطالبة . وانما ذكرت هذه الاشياء بياناً لما كان يأكله عبد الحميـد واعوانه من مال الأمة والأمة في أشد الحاجة اليه . وأرى ان اصلاح المالية العثمانية لا يتهيأ لنا الا بعد زمان مديد وذلك على يد أهل العلم بالاقتصاد من الاوربيين . هذه النقائص التي استمرت طوال الاعوام لا تغالب الا بكد ينفد فيه الصبر وتنحل فيه العزائم . ولو التفتت الحكومة الزائلة الى حال البلاد وتبينت وجوه الفائدة لوجدت منها كنوزاً تغني امم الارض . ولكنها عاشت تجني ولم تغرس ابداً

تلخيص الخلاصة

في تاريخ سيواس

نويت ان أتجاوز الكلام في هذا الباب الى غيره وأشرت الى ذلك في احدى الفصول المتقدمة . ولكنني كرهت ان أخرج من كتابي تاركاً فيهِ نقصاً لا يعذرني عليهِ من يقتنيه . وها انا اجرب سجيتي في اجادة ما اعني بهِ . ان لديَّ مظان جمة ارجع اليها في استقراء الاخبار وبدء تاريخ سيواس لا يختلف عن غيره . ان عليهِ مسحة من الشك لا يزيلها يقين . واني لأحاول ان اجعل منقولي اقرب الى اليقين منهُ الى الشك

ان ولاية سيواس جانب من شمالي مملكة (قبادوكيا Cappadocia او Cappadoce) اسمها القديم (قابيره Cabira) ولعله (كبيره) ثم سميت (سباست Sébaste) في ايام الرومانيين . ومنه اسمها الحالي سيواس . ذكر (استرابون) المؤرخ المولود في مدينة (آماسيا) ان سيواس كانت في ايامه عاصمة (قبادوكيا) . وروى غيره ان (مهرداد الثاني Mithridate II) لما فتح (قبادوكيا) انشأ لنفسه قصراً في سيواس . وزعم بعض الرواة ان (بمبيوس Trogue Pompée او (Trogus Pompeius القائد الروماني الشهير لما هزم مهرداد وقضى عليه بالانتحار بدل اسم سيواس . فسماها (ديوسپوليس Diospolis) ولم اجد ما يؤيد ذلك في كتب الثقاة

ثم تنقلت سيواس في ايدي الفاتحين من الرومانيين واليونانيين

والفرس . تمادى تنقلها على الدول من اوائل العصر الخامس قبل الميلاد الى اوائل العصر العاشر بعد الميلاد . اختارها (نيرون Néron) وتملكها (يوستنيانوس Justinien) . واستقرت في حكم طائفة من بقايا اليونانيين الى ان ظهر الغازي احمد دانشمند بن علي بن نصر في ايام الخليفة العباسي القائم بامر الله عام ١٠٤١ ميلادي . فاستأذنه في فتح بلاد الروم اي الاناضولي على شريطة أن يحكم هو كل ارض يفتحها . ففتح سيواس واتخذها عاصمة ملكه وأسس فيها الدولة الدانشمندية . وذلك في عام ١٠٤٣ بعد الميلاد

ولم أرَ في خطط سيواس ما يدل على انها (سباست) القديمة عينها ولا اظن ان المدينة الجديدة خطت مكان القديمة . فليس بها من الاطلال والرسوم ما يخبر عن القدم . واكثر الناس يذهبون الى ان مدينة (سباست) كانت على مسيرة ثلاث ساعات من شرقي سيواس على شط نهرها المشهور المسمى (قيزيل ايرمق) . وهـذا القول يكاد ان يكون صحيحاً

وقد دامت الدولة الدانشمندية عصراً . وملوكها ستة . هذه أسماؤهم :

١ الغازي احمد دانشمند بن علي بن نصر (فاتح سيواس)
٢ الغازي محمد بن دانشمند
٣ ابو المظفر نظام الدين بن محمد المعروف بباغي بصان
٤ الغازي جمال الدين بن نظام الدين
٥ ابراهيم بن محمد بن دانشمند
٦ ابو الفداء اسماعيل بن ابراهيم

ولما ولي الملك ابو الفداء اسماعيل اقبل عليه عز الدين قليج ارسلان الثاني بن مسعود وهو الخامس من ملوك الدولة السلجوقية الرومية . فغزاه واخذ منه سيواس . ويروى انه جعلها عاصمة ملكه

وكان عز الدين قليج ارسلان ولى ابناءه العشر كلاً على بلد . فجعل ابنه قطب الدين على سيواس . ثم استقل بالدولة السلجوقيـة كيخسرو وسليمان شاه . وقد رأيت ان اذكر اسماء الملوك السلجوقيين الذين أظلوا سيواس بحكمهم . مبتدئاً بخامسهم لأنه فاتحها واول من حكمها منهم . وها هي اسماؤهم مع تواريخ ولاياتهم بالحساب الهجري :

		عام
٥	عز الدين قليج ارسلان الثاني بن مسعود	٥٥٨
٦	غياث الدين كيخسرو بن عز الدين	٥٧٨
٧	ركن الدين سليمان الثاني بن عز الدين	٥٨٠
	غياث الدين كيخسرو (ولايته الثانية)	٦٠٣
٨	عز الدين قليج ارسلان الثالث	٦٠٣
٩	عز الدين كي كاوس بن كيخسرو	٦٠٩
١٠	علاء الدين كي قباد بن كيخسرو	٦١٠
١١	غياث الدين كيخسرو الثاني بن كي قباد	٦٣٦
١٢	ركن الدين سليمان شاه بن كيخسرو الثاني	٦٤٤
١٣	غياث الدين كيخسرو الثالث بن سليمان الثالث	٦٦٤
١٤	غياث الدين مسعود الثاني بن كي كاوس بن كيخسرو الثاني	٢٨٢
١٥	علاء الدين كي قباد الثاني بن قرامرز بن كي كاوس	٦٩٧ الى ٦٩٩

وهذه الدولة السلجوقية هي التي نشرت النسل التركي في ارجاء

الاناضولى. وقد ظلت قائمة في سلطانها موالية للدولة (الايلخانية) . وعاش ملوك السلجوقيين الذين ولوا الحكم من بعد غياث الدين كيخسرو الثاني ينصبون ويعزلون بعهود الملوك الايلخانيين . حتى اذا ولي الملك علاء الدين كي قباد الثاني بن قرامرز بن كي كاوس . خلع طاعة الايلخانيين . فاقبل عليه جيش غازان محمود بن ارغون . فهزمه واعتقله في سجنه وكان ذلك آخر العهد بالدولة السلجوقية الرومية . وبقيت آثارها من بعدها تدل على مجد مؤثل وايام طيبة

ولما احتاز الايلخانيون سيواس رأى السلطان ابو سعيد وهو آخر ملوكهم ان ينفذ الى سيواس والياً من ارومتهم . فاختار لها الامير الشيخ حسن بن الامير حسين بن آق بوغا بن ايلكان بن جلاير . والشيخ حسن هذا هو ابن اخت ارغون خان . وكان ذلك في عام ٧٣٠ . ثم توفي السلطان ابو سعيد ولم يترك عقباً يرث ملكه . وقام امراء المملكة يقتسمونها بينهم . فنهض الامير الشيخ حسن والي سيواس متوجهاً الى العراق واصلاهم حرباً بعد حرب واقام الدولة (الايلكانية) او (الجلايرية) . وكان استخلف على سيواس حين خرج في غزوته الامير (ارتنا) وهو من امراء الجغتاي . فاحبه الناس واخلصوا له . وكان ذا رأي وسياسة . فضم توقاد وقيصرية وارزنجان وبايبورد الى مملكة جعل سيواس عاصمتها . ثم ولي الحكم بعده ابنه (محمد ارتنا) ثم تلاه حفيده علاء الدين بن محمد . فدام حكمهم نحو ثلاثة وخمسين عاماً . ولما توفي علاء الدين خطب امه وكانت ايماً رجل من متغلبي الطوائف الجنكيزية ومن علماء

التركمان اسمه احمد برهان الدين وكان قاضياً على ارزنجان . فبات حاكما على سيواس وما يليها

ويروى ان قره عثمان وهو احد رؤساء التركمان كان مخيماً بمشتى سيواس عام ٧٩٣ . وابى ان يدفع الخراج الذي كان يدفعه من قبل . فسار اليه القاضي برهان الدين في جنوده وانجلى القتال عن قتل القاضي . وقبره لا يزال على مقربة من شمالي سيواس . وله شرح سماه الترجيح على احد الكتب العربية المسمى التلويح . وفي ابانات ذلك أخذ السلطان (يلديرم بايزيد) العثماني سيواس واصبحت ولاية عثمانية . فجعل ابنه الامير ارطغرل بك والياً عليها وجعل (مصطفى بك مالقوج) محافظاً لها

فلما كان عام ٨٠٣ أقبل تيمورلنك التاتاري في خيله ورجله يطأ العروش ويعبث بالتيجان ويقلب البلاد ويستطير الحصون . فاناخ بكلكله على سيواس . وانها لفي روق شبابها ورونق جدتها . فصدمها صدمة قلعت منها الأبواب ودكت الحصون وكادت ان تميد الرواسي . ولقد احتال في فتح المعاقل حيلاً لا تخطر على فؤاد بشر . وكانت الجنود التي بها دافعت دفاعاً أذهلهُ . فلما صاروا في يده . قال : ليس من الرأي ان يترك هؤلاء الشجعان . فأمر بهم فضربت أعناقهم . وقد التجأ اليهِ اكثر من الستة آلاف من الصبيان يستأمنون وعلى جباههم المصاحف . فأمر بهم فداستهم سنابك الخيل وهو ناظر . ثم اتصل بهِ ان بسيواس جماعة من الكسالى . فقتلهم عن بكرة أبيهم . وقال ان الكسل مرض لا تؤمن عدواه . وينبغي ان تطهر الارض ممن ضني بهِ . وحين فرغ من قتل الناس وثلج بدمائهم صدره صرخ بجنده ان يوسعوا المدينة تخريباً . فما

رحل عنها الاَّ وهي اطلال وأهلها ارمام

ثم طار هذا الخبر الى السلطان يلديرم بايزيد وعلم ان ابنه الامير ارطغرل بك قتل في تلك الوقعة . فسار بجيشهِ يريد تيمور . وانهُ لفي سفره وقد خرج وحده ذات يوم يبترد بالنسيم . اذا راعي غنم ينفخ قصبة له . فهاجت لوعته وأنَّ فؤاده والتفت الى الراعي فقال : (أعد ايها الراعي أعد . أثكلت ابناً مثل طغرل . أم انهدَّ لك ركن مثل سيواس) . وحين التقى يلديرم بايزيد بتيمور . وغلبت كثرة التاتار على شجاعة العثمانيين . وقع السلطان العثماني اسيراً وفني جنوده قتلاً

ثم امتلك انقاض سيواس احد امراء الاكراد واسمه مزيد بك . وكان السلطان محمد خان چلبي فتح توقاد . فسير بايزيد باشا على مزيد بك فحاربهُ واتى السلطان بهِ اسيراً . ولقد أعجب السلطان بشجاعته وعقله . فعفا عنهُ وجعله والياً على سيواس على شريطة ان يعمرها ويستعيد رونقها . فتجددت المدينة في عثمانيتها . ودامت كذلك الى يومنا هذا

لقد حرن القلم وتجددت الشجون . فارجو القارىء ان يقيلني من الاستمرار . تلك خطوب لا اقدر ان اتولى وصفها الاَّ مستعراً

اسماء الولاة والمتصرفين الذين ولوا سيواس

منذ عام ١١٩٨ بعد الهجرة

اسماء	تاريخ الولاية			مدة الولاية		
	يوم	شهر	عام	يوم	شهر	سنة
الوزير سيد محمد باشا	٦	م	١١٩٨	١١		٥
الوزير سليمان باشا	١١	ج	١١٩٩	٢٢	٦	١
الوزير عبدالله باشا	١١	م	١٢٠٠	١٠	١٠	

اسمـــاء	تاريخ الولاية			مدة الولاية		
	يوم	شهر	عام	يوم	شهر	سنة
الوزير عبدي باشا	١١	ذا	١٢٠٠	٢٢	١	
الوزير محمود باشا	٢٣	م	١٢٠١	٢	٣	
الوزير مقداد باشا	١٥	را	١٢٠١	٧	٧	٤
الوزير حسن باشا	١٢	ذا	١٢٠٥	٢٤	٧	١
الوزير السيد عثمان باشا	١٩	ش	١٢٠٧	١٤	١	٤
الداماد السلطاني الوزير السيد احمد باشا	١٧	ل	١٢١١	١٧	٧	١
الوزير رجب باشا	٢٢	جا	١٢١٣	١٢	٨	١
الداماد السلطـانى علاء الدين باشا ابن السيد احمد باشا	٥	ص	١٢١٥	٢٧	٢	
الوزير كوسه مصطفى باشا	٣	را	١٢١٥	١١	٧	٢
علاء الدين باشا (الولاية الثانية)	١٥	ل	١٢١٧	١٧	٩	
الوزير ابو المراق الحاج محمد باشا	٣	ش	١٢١٨	٢١	٤	
الوزير يوسف باشا	٢٥	ذ	١٢١٨	١١	١	١
الوزير محمد جلال الدين باشا	٣	ص	١٢٢٠	١٢	١١	٧
بابا ابراهيم باشا	١٥	م	١٢٢٨	٥	١	٢
محمد غالب باشا (صدر اعظم سابقاً)	٢١	ص	١٢٣١	١٤	٧	١
على باشا الجرخه جى	١٢	ن	١٢٣٢	١٤	٧	١
الوزير لطف الله باشا	١٧	ل	١٢٣٣	١٣	٦	١
الحاج محمد بهرام باشا	١	جا	١٢٣٥	١	١١	
الوزير الحاج سليمان باشا	١١	ر	١٢٣٦	١٧	٧	١
الوزير حسن باشا	٢٩	م	١٢٣٧	٣	٧	
الوزير اسماعيل حقى باشا	٣	ذا	١٢٣٧	٧	١٠	١
الوزير كوسه محمد باشا	١٢	ل	١٢٤٢	٢	٥	٤
اسماعيل باشا (الولاية الثانية)	١٥	ر	١٢٤٤	٢٦	٩	
الوزير عثمان باشا	١٢	م	١٢٤٥	١٨		
الوزير الحاج حسن باشا	٦	ص	١٢٤٥	٥		١

اسمـاء	تاريخ الولاية			مدة الولاية		
	يوم	شهر	عام	يوم	شهر	سنة
سعيد ابراهيم اغا احد بوابى المابين وكان عين محصلا	١٤	ر	١٢٤٨	١		٣
الوزير عثمان باشا (الولاية الثانية)	١٤	ر	١٢٤٨	٢٣	٩	
سعيد ابراهيم اغا محصلا (التولية الثانية)	٨	م	١٢٤٩	٥	٨	
رشيد محمد باشا (صدر اعظم سابقاً)	١٤	ن	١٢٤٩	١١	٢	
الوزير حافظ باشا	١٥	ش	١٢٥٢	١٧	٢	٢
الوزير اسعد محمد باشا	٣	ذا	١٢٥٤	٢٧	٧	١
الفريق محمـد حمدي باشا الميرميران سعيد ابراهيم باشا السيواسى (التولية الثانية)	١	ب	١٢٥٦		١٠	
الوزير عشقر باشا	١	ل	١٢٥٩		٨	
الميرميران محمد باشا	١	جا	١٢٦٠		١٠	
الوزير محمد شريف باشا	١٠	ر	١٢٦١		٨	
الميرميران محمد منيب باشا	١٠	ذ	١٢٦١	٢٦	٨	
الميرميران محمد باشا	١	جا	١٢٦٠		١٠	
الوزير محمد شريف باشا	١٠	ر	١٢٦١		٨	
الميرميران محمد منيب باشا	١٠	ذ	١٢٦١	٢٦	٨	
الوزير محمد اسعد باشا (التولية الثانية)	٧	ن	١٢٦٢	٢٨	٣	
الوزير عزت باشا						
الوزير عشقر باشا (التولية الثانية)	٢	م	١٢٦٣		٨	١
الميرميران عباس باشا	٣	ن	١٢٦٤	١٤	١	١
الميرميران محمد منيب باشا (التولية الثانية)	١٨	ل	١٢٦٥	١١	٨	١
الوزير محمد حمدى باشا	١	ر	١٢٦٧	٢٧	٤	٣
الوزير اسماعيل باشا	١٨	ذا	١٢٦٩	١٨	١١	
الوزير فيض الله باشا	١٧	ذا	١٢٧٠	٢١	٨	١
الوزير محمد باشا	٨	ش	١٢٧٢	١٠	٤	٣

اسمـاء	تاريخ التولية			مدة الولاية		
	يوم	شهر	عام	يوم	شهر	سنة
الوزير محمد خير الدين باشا	١٩	ذ	١٢٧٢		٥	
الميرميران الحاج احمد باشا	٢٤	جا	١٢٧٨	١٤	١١	١
الميرميران الحاج محمد زكى باشا	٩	جا	١٢٧٨	٧	٢	١
الوزير محمد رشيد باشا	٧	ل	١٢٧٩	٢٠	٦	١
الميرميران احمد باشا	٥	ر	١٢٨١	٤	٤	١
الوزير على رضا باشا	٤	ن	١٢٨٢	٢٩	٤	١
الوزير الحاج احمد عزت باشا	١	م	١٢٨٣	٢٠	٩	٤
الوزير محمد حالت باشا	٣	ن	١٢٨٨		٦	
المشير احمد اسعد باشا	٣	را	١٢٨٩	٧	٢	
الوزير محمد خورشيد باشا	٣	جا	١٢٨٩	٢٥	٨	
الوزير محمد تقى الدين باشا	٢٥	ص	١٢٩٠		١١	
الوزير الحاج احمد عزت باشا (التولية الثانية)	٦	ص	١٢٩١	١٦	١٩	٣
الوزير مصطفى ثريا باشا	٦	را	١٢٩٥	١٨	٦	١
عابدين باشا (من رجال روم ايلى بكلر بكى)	٩	ن	١٢٩٦	٢	٦	
حقى باشا ابن اسماعيل باشا من رجال رتبة روم ايلى بايەسى		را	١٢٩٧	١٢	١٠	١
الوزير خليل رفعت باشا	١	ر	١٢٩٧		٧	٣
الوزير عابدين باشا (التولية الثانية)	١	م	١٣٠٢	٩	٩	
الوزير سرى باشا	٣	ش	١٣٠٣	١	١٠	١
الوزير سروري باشا	٣٠	ب	١٣٠٥	١٢		١
الوزير محمد ممدوح باشا	١٢	ش	١٣٠٦		١٠	٣
الوزير خليل باشا	١	ج	١٣١٠	٢٥	٥	٣
الوزير الحاج حسن حلمى باشا	٢٧	ل	١٣١٤	٣	١١	٤
الوزير رشيد عاكف باشا ابن عاكف باشا الشهير	٢٤	ذي	١٣١٩	الى ان اعلن الدستور العثمانى فعين بعد ذلك ناظراً للداخلية وهو اليوم عضو بمجلس الاعيان		

لقد استعنت في هذا التلخيص بمظان جمة اهمها (قاموس الاعلام) الذي وضعه المرحوم العلامة شمس الدين بك سامي وتقويم ولاية سيواس الرسمي الذي رتبه الفاضل الجليل رشيد عاكف باشا وقام بتحرير القسم التاريخي فيه صديقي الشاعر التركي المجيد سامح بك فتحي . وهو من احفاد علاء الدين باشا الداماد الذي تقدم ذكره في أسماء الولاة . وقد اعتمد سامح بك في اكثر رواياته التاريخية على (تقويم مسكوكات) وهو من الكتب التركية المعتبرة . وكنت أود ان ازيد هذا الفصل اسهاباً . ولكن خفت الخروج عن موضوع الكتاب

ومما أسفت له اني لم أجد كتاباً أعتمده لأنقل عنهُ شيئاً من تاريخ سيواس قبل الدولة الدانشمندية . فان الكتب الافرنجية لا تشفي غليل الباحث . وكل كلام تضمنته في سيواس موجز أشد الايجاز . والكتب العثمانية اكثر منها ايجازاً . فكان محصول الاستقصاء على قدر المستطاع لا على قدر الواجب

رجال الدين في سيواس

رجال الدين في كل أقطار الأرض حرب على الناس . فهم يبدون غير ما يخفون ويأمرون بما لا يعملون . ومنهم من صدق ايمانه وكانت سريرته كعلانيته وهم أقل من القليل . والذين اريد ذكرهم او الاشارة اليهم في هذا الفصل قوم فيهم فضل ومعرفة واوتوا فطنة ودهاء ولكن حظهم مما اوتوه أقل مما تعرضوا له من تهذيب الناس وتعليمهم . ثم غلب عليهم النفاق فاتخذوا ايمانهم ذريعة الى المال ورضاء للسلطان . والا فليست التقوى سبيلاً الى شقاوة المرء وجميل الظن بالخالق سبحانه وتعالى وعبادته لا يحملان على ايذاء خلقه . والبررة كالفجرة . لهم أنفس تشتهي وأفئدة تتطرب وأهواء تستأثر . وحسب التقي ان يكون تقياً وان يدعو الناس بلسانه الى انتهاج نهجه . لا مورطاً ولا ظالماً . والمتجاوزون حدود النصح مزاحمون للانبياء والمغالون في النسك مشاركون للمنافقين . والدين لا ينصر بالشطط ولا يخذل بالتهاون

عرفت من علماء سيواس رجلا اسمه امين افندي . هو عضو بمحكمة الجزاء الابتدائية . وكنت أغشى منزله مع صديقي وخالي امير باشا احد امراء الجراكسة بسيواس . فنأخذ في حديث الصوفية ويستعر بيننا الجدال . فكنت أجده رحب الصدر في مناظرته . صبوراً على شدائد البراهين . اذا انتهى به الجدل الى العي امسك عن الاستمرار واستطرد الى ذكر ملح ونوادر يستطيبها السامعون . وكان يقول لي : ان ما بيني وبينك لمختلف جداً . أنا احاول ان أتركك على التصوف وانت تحتال في

اخراجي الى التفرنج . وليس أحدنا بالغاً أربه . وكنا في بعض زياراتنا له نستصحب علي افندي . وهو من علماء قونية . يأتي كل سنة مرة فينزل بدار امير باشا اياماً ثم يرجع الى بلده . وكان علي افندي وعظ الناس في الجامع . فنهاهم عن اتخاذ التماثيل والصور . وجعل يقول : ان الملائكة لا تدخل داراً فيه صوَر . فلما حضر بعض مجالسنا عند امين افندي أصغى الى كلامي اصغاء المتأمل . فكأن كلما انكر شيئاً سألني عليه برهاناً . حتى اذا فرغنا وخرجنا نطلب منازلنا قال لي : لا عيب فيك سوى انك شديد الانحراف عن السلف الصالح . فأقول اما السلف فنعم واما الصالح فلا

وقد زارني امين افندي ومعه علي افندي . فرأياني آخذاً آلة التصوير اصوّر بها امير باشا . فقالا لي : أهذا دأبك الدهر . قلت : لا ولكنني أتلهى بذلك حين لا أجد لهواً غيره . وسألتهما ان يجلسا معاً لأصوّرهما . فأحجما ثم انصاعا وصوَّرتهما . ولا تزال صورتهما عندي . ولما قال امير باشا لعلي افندي أتدعه يصوّرك وانت تنهي عن اتخاذ الصوَر في البيوت ؟ قال : دعني . رأيت هذا الرجل أعرف مني بالحق . فلا يقولنّ مذ اليوم شيئاً واخالفه فيه

ولأهل سيواس في امين افندي أقاويل يكذبونها . غيظة منه وبغضاً له . وقد زعموا انه قال ان الله تنكر ذات ليلة . فدخل احدى الكنائس . وأراد جبريل ان يدخل عليه في أمر عرض . فلما لم يجده على عرشه اكبر ذلك وانطلق يفتش عليه . فرأى الله مختبئاً وراء صنم من اصنام الكنيسة . وهذا قول لا يقوله أجهل الناس فكيف يقوله امين افندي

وقد حضرت مفتي سيواس يوماً في غرفة ارستيدي باشا معاون

الوالي . وكان ذلك في رمضان . فاخذ المفتي يقص علينا اخبار من تقدم من الصحابة والتابعين والائمة والصالحين . ومعاون الوالي في شغل بما بين يديه من اوراق الحكومة والمفتي يريد اليه ان يدع الاوراق ويستمع اخباره . فقال ارستيدي باشا مازحاً : أتريد ان تضطرني الى الدخول في الاسلام اضطراراً . فقال المفتي : كلا وانما أحب ان تسمع هذه الملح . عسى ان تشرح صدرك للاسلام . قال ارستيدي باشا . لقد كان الاسلام والمسلمون بخير اما اليوم فالاسلام وحده بخير . فضحك المفتي وقال صدقت . صدقت

ومن علماء سيواس واصحاب الغلو من متعصبيها ضياء الدين افندي . ذاك الذي كان ينهي الناس أن يزاوروني . زعماً منه ان دخول بيت فيه تصاوير حرام . وله كتاب وضعه في تحريم الصور وتحريم اتخاذها . وعدني اخوه ان يطلعني عليه ولم يف بوعده .

ورأيت من علمائهم رجلاً اسمه راسخ افندي . هو احد معلمي مدارسهم . وكان ذلك يوم تلي فرمان الوزارة التي قلدها رشيد باشا والي سيواس . فوقف راسخ افندي بين الجموع في بهرة الحلقة التي تلي فيها الفرمان وخطب الناس . وما زين له شيطانه الا ان يخطب بكلام العرب . فما افتتح فاه بالبسملة الا رفعت الايدي وانطلقت الافواه صارخة: آمين . آمين . فكان المشهد هكذا :

راسخ افندي — بسم الله الرحمن الرحيم

الجمع — آمين . آمين . آمين

راسخ افندي — الحمد لله

الجمع — آمين . آمين . آمين

راسخ افندي — الذي

الجمع — آمين . آمين . آمين

راسخ افندي — رفع

الجمع — آمين . آمين . آمين

راسخ افندي — السماء على

الجمع — آمين . آمين . آمين

راسخ افندي — أرضنا وأرضكم

الجمع — آمين . آمين . آمين

وكان في المستمعين رجل قريباً من موضعي . استغرقته تأملاته وتعالاه اعجاب حتى سال لعابه على لحيته . فجعل يهز عنقه هزاً عنيفاً حتى خشيت أن يقصفهُ . فقد كان عنقه رفيعاً جداً . واستمر الخطيب في خطبتهِ فاحش اللحن قبيح اللفظ سمج التأليف مشوّش الافادة اذا أومأ خلتهُ يتوعد واذا أشار خلتهُ يخطف . فلما انتهى قلت : الحمد لله

وعلماء سيواس أهل دعوى ولجاج . رأيت منهم رجالاً يزعمون انهم قرأوا (السعد) مكرراً وهم لا يعرفون من موضوعهِ شيئاً . وذهب رجل منهم الى انه يحرم على المسلم ان يدعو غير المسلم اخاه واحتج بآية (انما المؤمنون اخوة) . فقلت له أنا لا أجادل بالقرآن ولكنني اخالف الساعة عادتي وأثبت لك فساد دعواك وخطأك في تأويلك . قال

— هات ما عندك

قلت — ان في علم المعاني باباً اسمهُ باب القصر

— اعرفه

— وفي الآية قصر موصوف على صفتهِ . فهذا لا ينفي الاخاء من غير المسلمين . ولو كان فيها قصر صفة على موصوف كأن تكون انما الاخوة المؤمنون لنفي من غيرهم الاخاء

فغضب الرجل من كلامي وقال : أعوذ بالله ان يكون في علم المعاني شيء مثل هذا الكفر . وما هو الاَّ اختلاق منك . وهب جدلاً ان دعواك صحيحة . أيحملني ذلك على ان أصدق علم المعاني وأكذب القرآن . فأيقنت يومئذٍ ان الرجل ممن أفرغ في رأسهِ عشرون قنطاراً قطراً . وآثرت اهماله وأنشدت قول أبي الطيب :

ومن البلية نصح من لا يرعوي عن جهله وخطاب من لا يفهم

هؤلاء الرجال يحللون من الأمور ما يوافق اهواءهم ويحرمون منها ما يخالف اهواءهم . يسطون على الناس بسيوف من الايمان الكاذب . فلا يثبت على لقائهم الاَّ من

اذا همَّ ألقى بين عينيهِ عزمهُ ونكب عن ذكر العواقب جانبا

فما تحكم عبد الحميد في الأمة الاَّ بنصر هؤلاء . أما جنوده فاولئك منخدعون . ولقد فطنوا لذلك . فجعلوا صلواتهم وابتهالاتهم كلها وقفاً لظالم الأمة . استجلبوا له القلوب الخالية والنفوس الطامعة فوقفوا كلهم لقاء الأحرار . يكيدون لهم كيداً . وكانوا يدعون المنفيين في بلادهم اعداء الدين والدولة . وكانوا يذمون الشورى ويذمون من يدعو اليها . ولو امكنتهم غرة من الاحرار لاجتثوا اصولهم وأبادوا أعقابهم . فاذا طهرت البلاد من شر هذه الفئة راجعتها السعادة

اقيال سيواس وسراتها

اذا جلس المرء على ممر الناس وأخذ يتصفح الوجوه ويثبت الاشباه وينفيها . تهادت أمامهُ مواكب الاشباح . هنالك الصور المتحركة تبدو وتستسر . تكاد النظرات تنبو عنها . فاذا وقف القعود على جانبي الممر ورفعت الايدي الى الصدور والرؤوس . فثم سريٌّ يمر . وكل هذا التكلف اجلالاً له . والسري رجل مثلهم . وقد يكونون أجمل منه لباساً وأحسن تقويماً . يلج الجمع فيوسعون له مكان السيد . وفي خطواتهِ تثاقل ولقده تأود وكتفاه يقلعهما كأنه يحمل بينهما كرة الارض . من سيدنا ؟ هو احد اعضاء مجلس الولاية . حضر الجلسة وخرج منها غير مشير برأي ولا ناطق بكلمة وهو مع ذلك يمر بالسوق ليتخير لنفسه ما اشتهت من اكل وفاكهة . فما يبلغ منزله الاَّ ويتبادر اليـهِ الخدم يكرمون وفادته . وعلى الدواوين المرصوصة في داره أناس يشتاقونه ويعدون الساعات انتظاراً له . وبعد فتسليمة فاستراحة فطعام فكلام فتوديع فنوم . هذا احلى من قول شوقي بك :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

اذا عرف القارىء هذا السري فقد عرف كل السراة . وانما أستثني منهم آحاداً لو عاشوا في بلد غير سيواس لكانوا من الظرف والفضل بالمكان الأرفع . وهم مع ذلك لا يمل قربهم ولا يسأم حديثهم . منهم امير باشا . وقد تقدم ذكره في فصل سبق . هذا رجل داره محط رحال الكرام . سليل بيت له في المجد سابقات . وهو چركسي . ابوه المرحوم

ماهر بك . كان من امراء الاباظيين . لحق بهِ ضيم من الحكومة فخرج عليها في جماعة من فرسانه . وقد سيرت الدولة عليهِ الجنود فهزمها وأعجزها طلبه وأخذ عليها الدروب والمسالك . فاذا لاح له البريد أقبل عليهِ في أعوانه فاستاقهُ وفرق ما غنمهُ على أهل القرى وعلى رجاله ولم يبقِ لنفسه منهُ شيئاً . فلما عم اذاه واشتدت على الناس وطأته أرسلت عليهِ الدولة عدداً كبيراً من المقاتلة . فما زالوا يطاردونه الى ان دخل في ولاية قسطموني واختفى هنالك ولم يعلم من خبره شيء الى يومنا هذا . غير ان كثيراً من أشياخ الجركس يزعمون ان الجنود ظفروا به في بعض المواضع فقاتلهم حتى قتل وقتل معهُ اكثر رجاله وانهزم الباقون

ولاميرباشا أشياع وأنصار جلهم من الجركس يفضون اليه بحاجاتهم ويتقاضون الى حكمه في خصوماتهم . وله أعداء من قومه ومن غيرهم يترقبون الفرص لاتلاف نفسه وينصبون له حبائل المكايد . فحياته حياة حذر . اذا غفل عنهم طرفة حين حل به كيدهم

وكانت بين امير باشا وبيني مودة مؤكدة . ثم هو من أقارب والدتي وكنت اناديه ياخال فرأيت من اخلاصه ونصحه ما لا أنساه مدى الدهر . أقمنا على ذلك سبعة أعوام لا نختلف في شيء . سوى انه كان يزعم انهُ اسد مني رماية وكنت أزعم ضد ذلك . فنخرج الى حديقة له لا تبعد كثيراً عن البلد . فينصب لنا رجاله هدفاً على قمة تل هنالك . فتارة أنا اكثر اصابة وتارة هو اكثر اصابة . هذا اذا كانت الرماية بالبندقية واذا هي كانت بالمسدس . فالفوز حليفي لا محالة . وقد عاهدني ان يهيء لي أسباب الفرار من سيواس كما أبنته في غير هذا الموضع . ولولا ان

تداركنا الله باعلان الدستور في البلاد العثمانية لنجوت من سيواس على يده

ومن سراة سيواس رجل اسمه عبد الله بك . وهو ابن اغا قانغال . ما شئت من مال ومن نشب . مات رحمه الله في شبابه بمرض السل بعد ان قاسى منه ما لا يصبر عليه غيره . وكان على جانب من صغر الرأي . فصد عن نصح الاطباء الى ان أحس بدنو أجله . فهم بالسفر الى الآستانة ليتداوى عند كبار أطبائها ولكن أدركته المنية حين لم تبق فائدة للعلاج

ومنهم نوري بك بن الحاج علي بك . وهذا الرجل أشبه الناس بعبد الحميد . ومن مزاياه التي أمن فيها النظير انه ما لبس ثوباً نظيفاً ولا حمل صدره قميصاً افرنكياً . وهو من أعضاء لجنة المهاجرين وقد ترقى في مدارج العلى حتى بلغ المتمايز . ثم وقف به جده لا يتقدم قيد اصبع . ولا أعلم من حال الرجل ما يسوء ذكره . غير انه كان كثير النفاق

ومنهم خالد بك مدير الاوراق . رجل حسن الطلعة . كريم الطباع . طيب المجلس . ولكنني شممت من خلائقه رائحة الختل . فاتقيته

ومنهم الحاج نوري افندي . مميز قلم المحاسبة . لوددت ان اروع بلقاء الذئب أعزل علي ان لا أراه . اني لأربأ بهذا القلم ان يسفل حتى يلتقط معايبه . ولولا لجاجة سبقت في ذكر هؤلاء القوم لأمسكت القلم عن ان يخط اسمه . وها أنا فاعل

ومنهم ابراهيم بك . ناظر النفوس . هو من مهاجري ولاية الطونة . أتى سيواس مع المرحوم خليل رفعت باشا أحد الصدور العظام . حين وجه والياً عليها . فلما فارقها الباشا بقي ابراهيم في سيواس ورضيها لنفسه وطناً

ومنهم توفيق افندي باشكاتب مجلس الادارة وضياء الدين افندي ميز المكتوبجي . وكانا في التجسس والوشاية فرسي رهـان . ولا أدري ايهما اشد تعصباً من صاحبه . وضياء الدين افندي زارني مرة في العيد . فأبصر بين الصوَر المعلقة على جدار الغرفة صورة شاب من فضلاء اخواننا الأرمن وهو المسيو باليوزيان . فاشمأز وبدا الغيظ على عينيه . ثم التفت اليَّ وهو يقول : أنزع هذه الصورة . لا ترفع صوَر الكافرين على جدار بيتك . ألا تعلم ان هذا الرجل هو أحد اعضاء الجمعية الارمنية السرية . فقلت : ليس ذا من شأنك . فخرج من عندي وهو يكاد يستعر غيظاً . اما توفيق افندي فلم يسلم عليَّ ولا سلمت عليه وأبغضني الرجل وأبغضته من أول يوم اختلفت فيه بيننا النظرات

ومنهم حسين افندي . سر قوميسر الولاية واليوم بدل هذا الاسم الى مدير البوليس . رجل لا أعرف له سيئة . ولقد حمدت سيرته وكنت ازوره مستطيباً زيارته . والمنفيون كلهم يحبونه ولا يذكرونه الا بالخير

اخواني في النفي

كان عبد الحميد يتخذ من بعض الولايات ديارات للنفي . فما غضب على حر ولا غضب على غير حر الا أشخصه الى واحدة منها . وانما اختلفت عنده مراتب النفي باختلاف الاجرام واختلاف الاماكن . فمن نفاه من خاصته امتحاناً او عتباً اختار له الثغور او البلاد القريبة من العمران . ومن نفاه قالياً ناقماً رمى به في أبعد المرامي . وراء الجبال . حيث البداوة والعصبية والموت الاحمر والبلاء الاسود . وسيواس هي احدى مواطن النقمة الحميدية

ألفيت بها اناساً سبقوني اليها . اولئك اخواني من احرار العثمانيين . طائفة منهم كانت آوت الى مصر في ايام كرومر الجليل وحامي الاحرار . وطائفة كانت هاجرت الى اوروبا او كادت تهاجر . ما زالت الاقدار تسيرهم وتطوّفهم في الآفاق حتى رجعوا كلهم الى العش الذي استطيروا منهُ . فمغلوب على أمره بالحاجة ومنخدع بوعد ومستخف له الشوق . وكأن حوادث الصروف كانت مسخرة للرجل الظالم . تحارب من يحاربهم . فما استقرت على ارض سيواس قدماي الاَّ ولحق بي آخرون . فكنت انا صاحب الفترة بين البريدين

فتجدد جلدي وثبتت نفسي . وقلت المواطن اوطان اذا تجاورت فيها الاحبة . وأقمت اياماً اترقب زيارتهم لي . فلم يطل ترقبي . فكانوا يتوافدون عليَّ فرادى ثم مثنى . ولما اطمأنت قلوبهم عليَّ وعرفوا اني غير محجوب عن الناس اكثروا الترداد في ود وصفاء لا انساهما ابداً .

وها أنا ذاكر أسماءهم على ما علق في ذهني

الخوجه شكري . (هو الآن مبعوث سيواس)

الدكتور فائق

توفيق افندي

خالد افندي

صلاح الدين افندي

رضا بك

شوقي افندي

رجب افندي الالباني

فائق افندي

وهذه أسماء من نفوا الى سيواس على أثري

البكباشي المرحوم جميل بك

الملازم احمد بك

المرحوم حسن بك ويريون الالباني

نجله نزهت بك ويريون

المسيو لامبروس نيقولاييدس

حكمت بك

وكان بسيواس متفيان . احدهما علي غالب بك . هو مدير الاوراق بنظارة المعارف . وثانيهما عادل بك وهو احد خزنة الكتب في مكتبة عبد الحميد التي بقصره . لقد صددنا عن هذين الرجلين لأن المتقدم الذكر منهما احد الجواسيس الذين فتكوا بالارواح فتك الذئاب حتى

ضرب بالسيف الذي ضرب بهِ المظلومين . والثاني رجل مذموم الاخلاق مملول الود لا يدانيه احد من الناس . وقدم سيواس بعد ذلك منفيان احدهما البوز بك حمو عبد الحميد وثانيهما توفيق بك متولي زاده احد أشراف ازمير . وكان البوز بك يقبض كل شهر راتباً قدره ١٥٠ جنيه . وكان بسيواس منفيون غير الذين ذكرت اسماءهم وعددهم اكثر من الخمسين والمائة . غير انهم فرقوا في انحاء الولاية . فاسكن فريق منهم توقاد واسكن فريق آماسيا واسكن الباقون بلاداً اخرى داخلة في الولاية

وقد عنَّ لي في بعض ايامي رأيٌ . فدعوت بمن تقدم ذكرهم من الاخوان . وقلت لهم (هذه حياة لا لذة فيها . نظل في سيواس حتى تفنينا الايام ونرى الى وطننا وقد اشفى على الهلاك . كل يوم يموت منهُ عضو . والظالم الجبار سالمتهُ الايام . فما اظنهُ يموت وفي الوطن حياة ترجى) فقال قائلهم : وما رأيت لنا في الأمر . قلت : ما عندي رأي مختمر . وانما دعوتكم لنتشاور في الأمر جميعاً . ولكن ينبغي ان نعلم ان سبيل العمل فيما نتحدث فيهِ محفوفة بالمكاره . فمن أحس في نفسهِ ضعفاً فليتنكبها . انَّا نريد انصاراً ذوي عزم . لو ان في قلبي أقل الريب في صدق احدكم ما خاطبتكم في مثل هذا الأمر . اطلبوا التدبر والتأمل . ثم انظروا ما ينبغي ان نبدأ فيهِ . اني اظن ان الرأي في تأليف جمعية سرية تكون على الطريقة الماسونية او تقرب منها . على ان لا تكون ثم رئاسة تستهوي القلوب ويتخاصم عليها الاخوان . انا قليلون والثبات يكثرنا عدداً . ولنتخير من اشراف سيواس من نأمن غدره ونثق بمروءته ومن هو جدير بنصرتنا او مشاركتنا في بلوانا اذا حم القضاء . هذا أمر لا يستطاع الفراغ منهُ في

مجلس واحد . والايام بيننا . وسنزداد في كل التئام نلتئمهُ رأياً جديداً

قالوا — من لنا بالسلاح والعدة ؟

قلت — السلاح والعدة لهما رجال غيرنا . وانما علينا ان نحكم تدبيرنا ونتولى استكمال جمعيتنا . فاذا اتت نوبة السلاح والعدة نظرنا في ذلك . وان تأتي تلك النوبة الاَّ وحولنا رجال اولو بأس ونجدة

فرضي الاخوان رأيي ووعدوني بالنظر فيهِ . ثم توالت اجتماعاتنا . فكنا نتفق على اشياء ونختلف على اشياء حتى اتفقنا على ان لا نتفق . وسلك كل بعد ذلك طريقاً وانقسمنا جماعات وكلنا أقل من ان نكون جماعة واحدة . غير اني لم اعلم على احد من الاخوان ما يزري بحريته ولا ما يستحدث ريباً في نجدته . وقد فرّق الدهر بيني وبينهم بعد اعلان الدستور ونحن متوادون . لم يبدل احدنا بسياسته سياسة . صبرنا على مضض الايام ووقفنا في وجه الحكومة البائدة غير صاغرين . ولو كان والي سيواس غير رشيد باشا عاكف لقضينا الايام في ظلمات السجون . ولكن الوالي كان حرًّا شهماً وكان منفياً مثلنا . فهذا خفف ويلاتنا وجعلنا في مأمن من كيد الخائن . ولقد ذاق مرّ العذاب اخواننا الذين نفوا الى خربوط وقسطموني وغيرهما . وابتلوا بولاة لو سألهم عبد الحميد ان يقتلوا الأجنة في البطون لأطاعوا

كيف مرت ايامي بسيواس

العامة تقول : (الغريب أعمى ولو كان بصيراً) . هذا مثل يصدق فيَّ . ان سيواس أرض عثمانيـة وأنا رجل عثماني . فهي اذن بلدي وأنا ابنها . غير ان الغربة غربة الدار واحدة . كل أرض لم يسبق للمرء علم بها هي دار اغتراب له . وقد كانت اوائل ايامي في سيواس ايام شدائد . ضقت ذرعاً حتى لا أدري اية اذهب والى من ألتجئ . ولولا اخواني الاحرار الذين تقدم ذكرهم لبلغ بي الحرج أقصى حدوده . وما لبثت ان استأنست بالدار وأهلها واتخذت لي رفقة صالحة من نازليها ومن أشرافها . ثم أخذت أجوب مسارحها وألم بساحاتها . فصرت بعد ذلك كأني بعض أهلها

ولقد علمت ان الحكومة في غنيـة عن خدمتي وان المراد من وظيفتي اسمها دون حقيقتها ورأيت الموظفين يخفون عني أوراق الحكومة التي تتضمن شيئاً من أسرارها . فاخترت ملازمة الدار . والقي في روعي ان قراءة الكتب قد تستحدث نسياناً لمصائبي وتفيدني ما لا أعلم . فجعلت أتحرى أسفاراً أقتطف فوائدها وأقتبس من معارفها . فاذا حظ البلدة منها قليل . فاشتريت من القصص الفرنساوية ما ادخلت في غفوة من أعين الرقباء . فجعلت أقرأوها وأستعين بها على مغالبة البطالة . وأعارني اخواني الاحرار مما عندهم من الكتب . فشفت داء صدري وطابت بها أوقاتي . وأحببت ان اقضي بعض ساعاتي في التأليف . ولكن خوفني الاصدقاء من شرّ ذلك . قالوا قد يتصل بالحكومة أمرك فتدخل الشرطة دارك وتروع أهلك وحسبهم ما لقوه بالآستانة . واذا ظهر شيء تكون

كتبتهُ حرفوه وزادوا على ما فيهِ ورموا بك رمية لا نجاة لك بعدها . فأقمت بسيواس ما أقمت لم أؤلف رسالة ولا كتبت فصلاً من رسالة سوى كتابين

وكان يجيش في صدري الشعر فأقولُ الابيات او القصيدة الطويلة واقيدها في كتاب لا اطلع عليهِ أحداً . وقد ضاعت اكثر تلك القصائد اذ تساقطت اوراقها كما ضاعت عدة من غرر قصائدي بين اوراقي التي أخذها الجواسيس بالآستانة . فتلك السوانح أتلهف عليها وابكيها ما دمت حياً

وما مضى عليَّ الحول الأَّ ولي أصحاب كثيرون من الاجانب . اولئك قوم خففت مودتهم لواعجي . ألفيت منهم ودًّا لا يشوبه الهوى . ما نابتني نائبة من حدثان الدهر الا تسابقوا الى داري بوجوه كنت أقرأ على صفحاتها سطور الوفاء . فمن هؤلاء الدكتور جويت قنصل الولايات المتحدة الاميركية (هو الآن قنصل الولايات المتحدة في طرابزون) . فقد كان الرجل مني بمنزلة الأخ وكذلك عقيلته وشقيقتها المس باوس . ولما مرض اكبر انجالي بالحمى التيفوئيدية جعل الدكتور جويت يعوده كل يوم مرتين . وقد تولى معالجته مشتركاً مع صديقي الدكتور خسرف هكيميان . وكانت المادام جويت تأتينا صباح كل يوم . فتظل في خدمة المريض الى الظهر . ثم تذهب لتتغدى . ثم تعود فتمكث عندنا الى الليل . لم تنقطع يوماً واحداً الى ان شفى الله ذلك الطفل على يدي الطبيبين وعلى يدي هذه السيدة الفاضلة

ومنهم الموسيو لاپورت قنصل فرانسا . شاب لم يبلغ يومئذٍ الثلاثين من

العمر . كان كذلك مني بمنزلة الأخ . ولقد لمته ذات يوم على كثرة دنوه من سرير ابني في ابان مرضه . فابتسم في وجهي وقال : لا تخف عليَّ شيئاً . أبواي لقيا ربهما وليس لي زوجة ولا ولد يهمني ما يصيران اليه بعدي . فقلت بل لك اخوان كلهم يفديك بحياته ويستزيد لك الصحة والسلامة

ومنهم المسيو موتي سانتو . ترجمان قنصلية الولايات المتحدة الاميركية (هو الآن قيس قنصل الولايات المتحدة في طرابزون) ومنهم المرحوم المسيو اصلان . رئيس حسابات البنك العثماني بسيواس . كان مثالاً في صدق المودة . امتاز بالجرأة واستخفاف المهالك حتى اودى شهيدهما في بعض مسيره الى الصيد . ولم يبلغ من العمر اكثر من الثمانية والعشرين عاماً . ومنهم المسيو سالجاني مدير البنك العثماني والمسيو دوتوليدو أحد الذين خلفوا المرحوم اصلان . ومنهم المسيو بون هنري قنصل فرانسا بعد المسيو لابورت وعقيلته . فقد قضينا معهما شتاءً كاملاً . في ليالٍ نسينا بها اننا وراء جبال الاناضولي وخيل الينا اننا مقيمون بباريس . بين محاسنها وبدائعها

اما الموظفون العثمانيون فمنهم صديقي الأوفى ارستيدي باشا معاون الوالي (هو الآن عضو في مجلس الاعيان) . وقد تخرّجت عليَّ كبرى بناته في اللغة التركية . لن ينسيني كرور الايام ما لقيت من هذا الشهم وآله من جميل الود . فما استحدثت الايام لي معضلة الا كان حلها بيده . وارستيدي باشا رجل من نخبة العثمانيين فضلاً وأدباً . وله في وظيفته آثار تشهد له بما اوتي من الحكمة والرأي

ومنهم اسعد بك رؤوف سكرتير لولاية . (ثم جعل متصرفاً لمرسين) واظهر في المذابح الارمنية من الحرية والعدالة ما يتباهى بهِ العثمانيون

فكنا اذا جاء فصل الصيف . ننصب الخيام خارج البلدة . بالقرب من مصنع الدقيق الذي اسسه خليل رفعت باشا . فهنالك بارض النبت في ألوانهِ الزاهيــة وهنالك الاشجار المتكاثفة والينابيع المتفجرة والانهار الدافقة والجبال الشاهقة والنسائم المعتلة . نقيم تحت تلك الخيام المتجاورة شهراً او اكثر كسكان البادية . تصبحنا الشمس المشرقة ويماسينا البدر المتكامل من وراء الاكمة . ونحن نرتع في تلك المحاسن . فآونة نطوف متصيدين انواع الطير وتارة نذهب الى منهل عذب نعلُ صافيه ونصيب عنده طعامنا . فلا ينتهي الموسم ونرجع الى البلدة الاَّ ممتلئين صحة وشباباً. فنقضي ايامنا بذكر تلك الاوقات ونقيم على التزاور والتواد والصيد ونحوه طول فصل الشتاء . وهو تسعة اشهر . حتى اذا عاد الصيف عدنا الى ما كنا فيهِ

اني لكثير الحنين الى تلك الايام الطيبة . ولولا ما كدرها من ظلم عبدالحميد واستبداده على الأمة لتمنيت عودتها مع اولئك الاصحاب . فذلك العيش معلل جانبه . وهنالك الدعة والصفو كلاهما . هذه ذكرى طيبة اوثرها في كتابي تشريفاً له بذكر اولئك الاخوان . وما في فوآدي اجمل وأبقى

وقد وجدت لي اعمالاً تعينني على التخلص من شؤم البطالة . فتعاطيت حفر الخشب وتجويفه واكثرت من التمرن في التصوير الفطوغرافي والتصوير باليد . فكنت اذا ضاق صدري اجد منهما مفرجاً للكربة .

كذا مضت عليَّ سبعة أعوام في تلك الارض . فلم اعدم من الحكومة البائدة عدواً يكدر صفو الحياة . فقد عشت محروماً من صحف الاخبار الاَّ ما كنت اقرأوه عند اخواني الاجانب . وكانت ادارة البريد لا تدفع اليَّ الكتب التي يبعث بها شقيقي ومعارفي الاّ بعد ان تفض ظروفها وتعلم ما فيها . لم يغنني لديها تظلم ولا استنصاف . وكان مدير البريد والتلغراف من اكبر الجواسيس

اهـل سيواس

تقدمت في فصولي الماضية اشارات الى أهل سيواس . فتلك متفرقات لا طائل تحتها . وهذا الذي اذكره اكثر فائدة وأخص بياناً

ان للامصار من بنيها اعواناً على اتساعها وتعاظم شأنها وزيادة رونقها وتوفر ثرائها . وما يصيبها من عناية الحكومات مجلوب برغبة الاهلين وطلبهم . وسيواس كغيرها من سائر المدن العثمانية بقيت على قدمها . وما بقيت عليهِ في تمام محاسنه بل قامت على انقاض لم تمسها يد مجدد من ابنائها . فهي عنوان فطرتهم ودليل عجزهم

وبنو سيواس قوم تعودوا عيشهم فاستطابوه . ولئن قام منهم اناس يشكون حالهم . فتلك شكاية لا استمرار لها . تبسامة من والٍ تنسيها وزجرة من مدير البوليس تذهب بريحها . وان من آفات الجهل ان يعد المرء شقاوته نعيماً وان لا يصدق ان في الحياة الدنيا عيشاً هو أطيب من عيشه

ما اشتاق أهل سيواس شيئاً مما بأيدي غيرهم ولا تاقت نفوسهم الى احراز مثله . فاذا حدثهم محدثهم بما في مدن الغرب من مظاهر العمران وقص عليهم أخبار الناس ووصف لهم الكهرباء في نورها الوهاج وقوتها التي تستخف الرواسي ضحكوا ضحك غير المصدق . وظنوا ان الرجل يحدثهم باشياء لا مكان لهـا في الوجود . يتساوى في ذلك أشرافهم وسوقتهم . هم يقولون أعلى هذه الأرض بلد هو أعظم من سيواس . ام فيها أقطار أنهارها كأنهارنا ورياضها كرياضنا وخصبها كخصبنا . واذا جاراك محدث الى ما تعيب من سيواس . فانمـا يصنع ذلك تحبباً اليك . وفؤاده ينكر عليك ما تقول

وما القوم بمحرومين من العقل ولا ذكاؤهم دون ذكاء الناس . ولكن يغلب على قلوبهم بعدهم عن بلاد الله وحياتهم التي يتقضى اكثرها على شاهقات آسيا الصغرى وجهلهم الذي لا يقف عند حد . فيبقى ذلك العقل غير مستخدم ويظل ذاك الذكاء معطلاً وغير مستثمر . وبذا تتعود النفوس عيش البطالة وتنشأ على العجز والذلة . ولئن كان الطمع مذموماً فان من القناعة لشراً منهُ . وقد رأيت من فاقة السيواسيين ما لا أقدر ان اصفهُ ولا ان أقارنه الى غيره . تلك فاقة منسوجة على غير منوال وأشد ما فيها ان لا رجاء في زوالهـا . واذا اقتضى الكلام على المتمولين الذين هناك . فقل ان فيهم الموسرين ولكنهم ليس فيهم الاغنياء . ومن كان مجموع ماله الذي جنيه عدّ من كبار أغنيائهم . واكبر غني هنـاك هو افيونيان وكل ماله لا يتجاوز العشرين ألف جنيه

وان من عجـائب ما استقراه العقلاء ان اكثر الأمم غلواً في الدين

اكثرها تهاوناً في غيره . وما ذهب بمجد اليونانيين وأخر سبق الرومانيين وأضعف سلطان الاسبانيين لجدير بأن يبلغ بالسيواسيين منتهى الشقوة . وما غلوّ هؤلاء القوم في دينهم ظاهراً في نسكهم وعبادتهم بل هو بيّن في صدّهم عن كل شيء يأتيهم من اوروبا . لقد كنت أخرج الى بعض الخلوات مع رفقة لي . محمولين على الدراجات . فيرجمنا الشبان والصغار بالحجارة وكم اضطررنا الى تهديدهم بالمسدسات رداً لأذاهم فرددناهم وما كدنا . وهم يسمون الدراجة (شيطان عربه سي) اي عربة الشيطان . ولما استمرّ اعتداؤهم وأعيتنا الحيل في اكتفاء شرّهم عمد كل منا الى دراجته فباعها

وكانت السيدات الاوروبيات اذا خرجنَ للنزهة يصحبنَ معهنّ رجالهنّ وخدمهنّ لكي يردوا عنهنّ الاولاد اذا رموهنّ بالحجارة . وهذه الجرأة تجدها عند المسلمين كما تجدها عند الارمن . وصبيان الارمن اذا رأوا سيدة اوروبية صاحوا بها : يا مادام . جيوبك ملؤها الشياطين . وقد يغتفر المرء امثال ذلك من صبية نقصوا تربية وحرموا علماً . ولكن ما يقول المرء اذ يرى امهاتهم يمشين محجبات ساحبات فضول مآزرهنّ . كجماعات الاوز او كأقطاع الغنم . ولقد يبصرنَ بسيدة اوروبية او سائرة بزي الاوروبيات فيسببنها في وجهها ويضحكنَ من شكلها . هذا جهل لو انقلب علماً لأصبحت غربان سيواس فلاسفة . ذاك والمدارس الاجنبية لا تضيع في سوى التعليم وقتاً من اوقاتها . فما ظنك بها من قبل ان تدخل جنود العلم ارض سيواس

ولا يحسبنّ القارىء اني ارمي بما تقدم من كلامي الى ذم اخلاق

السيواسيين . فذاك بمعزل عن غرضي . بل ان أهل سيواس من أقرب العثمانيين الى التقويم والتهذيب . وما اظن ان في الولايات العثمانية ولاية تفاضل سيواس في دعة أهلها . ومن المستحسن من محاسنهم ان الجنايات بينهم أقل من الأقل . فلقد يمضي الشهر والشهران ولا تقع في مدينة سيواس جناية واحدة . ولقد كثرت في خارج المدن وفي بعض قراها سطوات الصعاليك وقطاع الطرق واكثرهم من الجركس . ثم أبادهم رشيد باشا عاكف في ايام ولايته فحل الأمن محل الخوف

واذا نظرنا الى اولئك الأقوام وحالهم حالهم من البؤس والشقاء وبقاء اكثر شبانهم بغير شاغل لهم من حرفة يحترفونها او طريق كسب يسلكونه وقارنا ذلك الى اعتصامهم بالصبر وغيرتهم على الأخلاق ان ينتهي بها الفساد الى ما لا علاج له عرفنا لهم حق الأدب القومي وأنصفناهم . فان الصناعات التي ذكرتها في فصولي المتقدمة قد انقطع اليها ناس عرفوا بها ولم يترسم خطاهم غيرهم . وسائر الشبان يحيون حياة بطالة ولهو لا طائل تحتها

الامة والشورى

من الناس من يذهب الى ان الامة العثمانية كانت تريد الدستور . هذا وهم لا حقيقة له . من اين للامة ان تدرك محاسن الشورى ولا عهد لها به . لقد أقرها عبد الحميد في اوائل ولايته اياماً ليخدع بها خصومه ويبث بها لهم حبائل الشر . ثم أخذ يرمي بهم واحداً بعد واحد حتى اباد جمعهم وافنى اكثرهم . ومدَّ بعد ذلك رواقاً من الظلم احتبى تحته الراضي والساخط وقضى ان لا يحاسب وان لا يعاتب فاشترى اقلاماً بذهبه وكسر اقلاماً بقوته . وحال بين الرعية وبين الحياة . فمن اين عرفت الشورى وكيف تاقت اليها نفوسها

ما اريد غضاً من جانب الامة ولا تجاهلاً لمناقبها . ولكن هو الحق الذي لا يتغلب عليه اللجاج . وليس في ادعاء غير الواقع فخر تناله الامة . ولا في ابطاله عار يلحق بها

ان الامة اشتدت عليها الاوجاع . فتجلدت وكرمت في تجلدها . وما كان ذلك عجزاً ولا ذلاً بل وفاء واعذارا . فكان منها من يحمل مصائبها على حكم القدر فيمتثل ايماناً وكان منها من يتهم حاشية السلطان باخفاء الامور عنه ومنع شكاوي الرعية ان تصل اليه وكان منهم من يقول ان سبب تلك الفادحات هو الغرب حيث عكف ساسته على الكيد لنا والانتقام لاسلافهم الذين وردت سيوفنا رقابهم وأذل سراتنا اعزتهم . ولم يتجاسر أحد من عامة الامة ان يتهم عبد الحميد في نجواه

فما ظنك باعلان عصيانه وانكار سيئاته عليه وانما باح ببغضه له

وجاهره بالعدوان قليل ممن تعلموا وعرفوا . فهؤلاء هم اعوان الحرية وانصار الشورى

ان العامة تحب الشيء اذا حببهُ اليها زعماؤها وتبغضه اذا بغضهُ اليها زعماؤه . وزعماء العامة عندنا رجال الدين وهؤلاء لا يرغبهم في الشورى شيء مما هم منقطعون اليه . فهم يحبون ان يظلوا محتكمين على الرقاب وان يبقوا عيالاً على الامـة وان يلثم النـاس ايديهم ويملؤا اكياسهم . ثم ان عبد الحميد اتخذ منهم شيعته وذادته . فما أثر هيبته في القلوب ولا ابتاع له المودات الا هذا الرهط . فصح اذن ان الامة لم تكن من العلم بالشورى على شيء

على ان فريقاً هو متوسط بين الخاصة والعامة أخذ يبدي ضجرته بعد ما طـال اخفاؤها . فكان كلما اشتدت وطأة الجواسيس زاد بغضاً لرجال الحـكومة . ظناً بان اولئك يخدعون السلطـان ويخونون عهده لأمته . وكلما حاول فريق الاحرار حمل هذا الفريق على مؤاخذة السلطان أبوا وقالوا : « حاش لله . هو أعظم من ان يتهم في ذمته . انتم خاطئون . الذنب ذنب من حملهم الامانة فخانوها »

قلت يوماً لصديقي امير باشا : ألا يقوم رجل من نجباء هذه البلاد . فيجمع بعض الأمة في داره ويعلمها بما هي صائرة اليهِ من الهلاك . ارجو ان يكون ذلك باعثاً لها على الانتباه . فقال : ان أهل الشرق لا ينبههم النصح وانما ينبههم الجوع . فاذا هم جاعوا طلبوا حقهم

قلت : هذا غلوّ منك

قال : بل هو الحق الذي لا يختلف فيه . وما كلمتك الا كلام مجرب

وقد أيدت الايام كلام صديقي . فحدث بسيواس غلاء . قبل اعلان الدستور بأشهر قلائل . وأخذ التجار يغلون الحنطة ثم لا يبيعون ما في خزائنهم الاَّ بعد رجاء تيبس له الألسن في الافواه . فتظلم الناس الى الولاية والوالي اذ ذاك في حوضة ينتظر ما قدر له من غدر عبد الحميد . فلم يتمكن من الاسراع الى اغاثة الملهوفين . فأقبلوا ذات يوم في جموع يزاحم بعضها بعضاً حتى وقفوا على باب الحكومة . فانتهرهم الجندرمة والبوليس . فهاج انتهارهم غضب المتجمعين . فحملوا على الأبواب وعلى الاجناد حملة تزحزح الجبال عن مواضعها . فغلقت الابواب واعتصم حراسها بالقصر . وكان الدفتردار وكيلاً عن الوالي . فأبرق اليه يخبره الخبر ولم يبين الأمر بياناً شافياً . فجاء أمر الوالي برد الناس الى منازلهم وضربهم اذا أبوا . غير ان الجنود أبت الامتثال وتركت اخوانهم ينهبون المخازن ولا يتعرضون لهم بشر . وما انتهت الفتنة يومئذٍ الاَّ حين نفدت الحنطة من المخازن

فأقبل عليَّ امير باشا باسماً وأخذ بيدي وهو يقول : نحن لا نجادلكم فيما تعلمون فما لكم تجادلوننا فيما نعلم . أرأيت يا ابن اختي كيف صدق يقيني وكذب ظنك . فأما وقد عرفت الأمة انها قادرة على مغالبة الحكومة وان صاحب الحق أقرب ما يكون من حقه اذا طلبه بساعده . فان وراء ذلك لخيراً يرجى

قلت : حسبك . وعظت وعظاً ما خلت اني أسمعه وراء (جاملي بل) والله على كل شيء قدير

وكان أهل ارضروم ثاروا قبل ذلك بأشهر على واليهم . فضربوه

حتى أماتوه . غير ان ثورتهم لم تكن من الجوع . فقد أراد ذاك الوالي نفي رجل من سراتهم . فاخذه من بيتهِ ليلاً . فخلصوا صاحبهم وعاقبوا المعتدي عقاباً اضطربت له جوانب يلديز . وجاءت اخبار غضبهم هذه نيازي ورفاقه المجاهدين . فجددت عزائمهم وأحيت آمالهم

ولئن عرفت الحكومة العثمانية الناشئة ان تسترجع الشورى من غاصبها . فذلك فضل تزيده معرفتها باستدامته . ومتى ذاقت الأمة عذب طعم الحرية وفطنت لما تنال في أيامها من الصفو والرخاء . أمست وهي أشد غيرة عليها من الاحرار وباتت امة حرة بأسرها ووضحت لها خطيئات أهل الاهواء

فهرست الجزء الثاني

	صفحة
مقدمة	٣
كيف نفوني الى سيواس	٥
السجن	٢٢
أعوان النقمة	٣٣
السجن الجديد	٣٧
الاحرار في بطون الارض	٤٠
بعض ما وقع أيام سجني	٤٢
من السجن الى الباخرة	٤٧
نظرة في حال فروق	٥٠
وداع فروق	٥٢
صامسون	٦١
كتاب الى الصديق الأوفى	٦٣
الى سيواس	٦٥
سيواس	٧٧
وفاة الحاج حسن حلمي باشا	٨٢
زفرة من زفراتي	

	صفحة
ما كابده أهل بيتي في فروق	٨٧
قدوم رشيد عاكف والأعلى سيواس	٩٠
كلمة في الاناضولي	٩٩
جغرافية ولاية سيواس	١٠٦
آثار القدماء في سيواس	١١٦
واردات ولاية سيواس ونفقاتها في سنة ١٣٢٣ مالية	١٢٢
تلخيص الخلاصة في تاريخ سيواس	١٢٧
أسماء الولاة والمتصرفين الذين ولوا سيواس	١٣٢
رجال الدين في سيواس	١٣٧
أقيال سيواس وسراتها	١٤٢
اخواني في النفي	١٤٦
كيف مرّت ايامي بسيواس	١٥٠
أهل سيواس	١٥٤
الأمة والشورى	١٥٨